

الأمثال

عناصر الموضوع

٨	مفهوم الأمثال
٩	الأمثال في الاستعمال القرآني
١٠	الأنفاظ ذات الصلة
١٢	أنواع الأمثال
٢٢	ميادين ضرب الأمثال
٣٧	مقاصد ضرب المثل
٤٦	آثار ضرب الأمثال

مفهوم الأمثال

أولاً: المعنى اللغوي:

(مثل): الميم والثاء واللام: أصلٌ صحيحٌ يدل على مناظرة الشيء للشيء، وهذا مثل هذا: أي نظيره وشبيهه، والمثل: الشيء الذي يضرب لشيء مثلاً، فيجعل مثله، ويطلق على الصفة والعبرة والآية والأنموذج الذي يحتذى به^(١).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

عرف الراغب الأصفهاني المثل بقوله: «والمثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة؛ ليبين أحدهما الآخر ويصوره»^(٢).
ونلاحظ مما سبق أن هناك ارتباطاً بين المعنى اللغوي والاصطلاحي في كون المثل يضرب في المشابهة في القول، ولكنه يتضمن معانٍ أخرى كالصفة والعبرة والآية.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١١ / ٦١٠.

(٢) المفردات، ص ٧٥٩.

الأمثال في الاستعمال القرآني

وردت مادة (مثل) في القرآن (١٦٧) مرة^(١).
والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ ^(١٧) [مريم: ١٧]
اسم التفضيل	٢	﴿تَحَنُّنُ أَخْلَامٍ يَمَايَعُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَتُمْثَلَهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَيْسَتْ لَهُ إِلَّا يَوْمًا﴾ ^(١٠٤) [طه: ١٠٤]
صفة مشبهة	٧٥	﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَشَرُ مِثْلُ الرِّيَاسِ﴾ [البقرة: ٢٧٥]
اسم بمعنى الصفة	٨٨	﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ^(٦) [آل عمران: ٥٩]
اسم على وزن فعلات	١	﴿وَيَسْتَعْمِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ﴾ ^(٦) [الرعد: ٦]

وجاءت الأمثال في القرآن على أربعة أوجه^(٢):

أحدها: السنن، ومنه قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٤]. يعني سنن الذين خلوا من قبلكم.

الثاني: العبرة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾^(٦١) [الزخرف: ٥٦]. يعني: عبرة لمن بعدهم.

الثالث: الصفة والشبه، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ [الفتح: ٢٩]. يعني: صفتهم.

الرابع: العقوبة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ﴾^(٦) [الرعد: ٦]. يعني: العقوبات.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٦٥٩-٦٦١.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٤١٥-٤١٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ المثل:

المِثْل لغة:

فالمَثَل والمِثْل يدلان على معنى واحد، وهو كون شيء نظيرًا للشيء، وفي القاموس: «المثل - بالكسر والتحريك - الشبه»^(١).

المثل اصطلاحًا:

عرفه الإمام السيوطي بقوله: «المساوي من كل وجه»^(٢).

الصلة بين المَثَل والمِثْل:

المثل في دلالاته اللغوية الأصلية يعني (المشابهة) بين شيء وشيء، ولكن لفظ (المثل) أوسع من لفظ (التشبيه) يقول الراغب الأصبهاني: «المثل عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني، أي معنى كان، وهو أعم الألفاظ الموضوعية للمشابهة»^(٣)، يعني أنه أعم من (المثل).

٢ التشبيه:

التشبيه لغة:

قال ابن منظور: «الشبه والشبه والتشبيه: المثل، والجمع أشباه، وأشبه الشيء الشيء: ماثله»^(٤).

التشبيه اصطلاحًا:

قال محمد الغزي الشافعي: «هو عبارة عن محاولة الإنسان أن يكون شبه المتشبه به، وعلى هيئته وحليته ونعته وصفته»^(٥).

الصلة بين المثل والتشبيه:

المثل أعم من التشبيه؛ لأن المثل ما تكافأ في الذات، أما التشبيه لا يستعمل إلا في المتجانسين، فالتشبيه يأخذ بعض صفات الذات، أما المثل فيأخذ كل الصفات^(٦).

(١) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ٤ / ٤٩.

(٢) الحاوي للفتاوى، ٣ / ٤١٠.

(٣) المفردات، ص ٤٦٢.

(٤) لسان العرب، ١٣ / ٥٠٣.

(٥) الأعياد وأثرها على المسلمين، ص ٩٩.

(٦) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ص ١٥٣.

النظرير لغة:

المماثل والشبيه، يقال: فلان نظرير فلان إذا كان مثله، وشبيهه (نظرير) الشيء مثله^(١).

النظرير اصطلاحًا:

ما قابل نظريره في جنس أفعاله وهو متمكن منها^(٢).

الصلة بين المثل والنظرير:

المثل ما تكافأ في الذات على ما ذكرنا، والنظرير ما قابل نظريره في جنس أفعاله وهو متمكن منها؛ كالنحوي نظرير النحوي وإن لم يكن له مثل كلامه في النحو أو كتبه فيه، ولا يقال: النحوي مثل النحوي؛ لأن التماثل يكون حقيقة في أخص الأوصاف، وهو الذات^(٣).

(١) انظر: مختار الصحاح، ص ٣١٣.

(٢) الفروق اللغوية، العسكري، ص ٤٨٠.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص ١٥٥.

أنواع الأمثال

يعتمد المثل القرآني في بنيته الأسلوبية على لفظ (المثل) مفردًا أو مجموعًا، وهذا هو الشائع في صياغته.

وقد يقدر تقديرًا، ويدل عليه حرف العطف، كقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩].

وقد يفهم من السياق، كقوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

وقد توسع الزركشي في تقسيماته للمثل القرآني، فعد كل تشبيه في القرآن كقوله: ﴿كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكُونِ﴾ [الواقعة: ٢٣]، من قبيل الأمثال، فعنده (الأمثال الصريحة) المعتمدة على لفظ (المثل)، و(الأمثال الكامنة) التي تفهم من السياق من غير تصريح بلفظ (المثل).

والأمثال الواردة في القرآن الكريم على أنواع، هي: الأمثال الحسية، والأمثال المعنوية، والأمثال الافتراضية العقلية. وتفصيلها فيما يأتي:

أولاً: الأمثال الحسية:

ضرب الله تعالى في القرآن الكريم الكثير من الأمثال الحسية التي تقرب المراد للعقل وتصوره بصورة المحسوس، يقول البيضاوي: «فإن التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعنى الممثل له ورفع الحجاب عنه، وإبرازه في صورة المشاهد المحسوس؛ ليساعد فيه الوهم العقل ويصالحه عليه، فإن المعنى الصرف إنما يدركه العقل مع منازعة من الوهم؛ لأن من طبعه الميل إلى الحس وحب المحاكاة»^(١).

وقال أبو السعود: «فإن التمثيل ليس إلا إبراز المعنى المقصود في معرض الأمر المشهور، وتحلية المعقول بحلية المحسوس، وتصوير أوابد المعاني بهيئة المأنوس؛ لاستمالة الوهم، واستنزاله عن معارضته للعقل، واستعصائه عليه في إدراك الحقائق الخفية، وفهم الدقائق الأبية؛ كي يتابعه فيما يقتضيه، ويشايه إلى ما لا يرتضيه؛ ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية، والكلمات النبوية، وذاعت في عبارات البلغاء، وإشارات الحكماء...، فالتمثيل ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل، واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبي، وقمع سورة الجامح الأبي، كيف لا وهو

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٢٥٤.

ولكن عليه قليل من التراب الموهم للناظر إليه أنه متنج، فنزل المطر الشديد، فأزال ما عليه من تراب، فأنكشفت حقيقته، وتبين للناظر إليه أنه حجر أملس صلد، لا يصلح لإنبات أي شيء عليه^(٢).

ومن ذلك: ما ضربه الله مثلاً لحال الدنيا بالماء الذي ينزل من السماء - وهو شيء حسي -، فيختلط به نبات الأرض، فيصبح هشيمًا تذروه الرياح، فقال: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْنِدًا﴾ [الكهف: ٤٥].

يصور الله تعالى زوال الدنيا ونعيمها، وعدم خلودها كي لا يغتر بها المغترون والتمسكون بها، بالماء الذي ينزل من السماء فيختلط بنبات الأرض فتتسفه الرياح وتطيره، وهذا مثل على أن الدنيا زائلة، مثلما يزول النبات والمطر وغيرهما من مخلوقات الله في الأرض، مما لا يدع مجالاً للاغترار بشيء يزول بعد حين.

ويشبه هذا المثل قوله تعالى في مثل آخر: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَمْعٌ وَفَوِّضْ زِينَتَكُمْ وَتَفَاخُرَ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرَ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا

رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية، وإبرازه لها في معرض المحسوسات الجلية، وإبداء للمنكر في صورة المعروف، وإظهار للوحشي في هيئة المألوف^(١).

والمقصود أن في القرآن الكريم آيات كثيرة جاء التمثيل فيها بالأشياء الحسية؛ لإبراز المعاني المعقولة الخفية، وجعلها كالمشاهد المحسوس، ومن ذلك:

ما ضربه الله مثلاً لحال المنفق رياء، حيث لا يحصل من إنفاقه على شيء من الثواب، قال تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

ففي هذا الآية ضرب الله مثلاً للمنفق رياءً بالصفوان، وهو شيء حسي، فالصفوان: اسم جنس جمعي، واحده: صفوانة، وهو الحجر الكبير الأملس...، و(الوابل): المطر الشديد، و(الصلد): هو الشيء الأجرد النقي من التراب الذي كان عليه.

والمعنى: يا أيها المؤمنون لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى فيكون مثلكم كمثل المنافق الذي ينفق ماله من أجل الرياء، لا من أجل رضا الله، وإن مثل هذا المنافق في انكشاف أمره، وعدم انتفاعه بما ينفقه رياءً وحباً للظهور مثل حجر أملس لا ينبت شيئاً،

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧٢/١.

(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٦٠٨.

مَنْعَ الْفُرُورِ ﴿٢٠﴾ [الحديد: ٢٠].

ما ضربه الله مثلاً لحال المؤمنين وتشبههم بالزراع - وهو شيء حسي - الذي يعجب الزراع؛ ليغيب بهم الكفار، فقال: ﴿وَمَثَلُ الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيْبَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

فهذا المثل المضروب لهم، يهدف إلى الثناء عليهم ومدحهم، فكان التركيز فيه على صفاتهم الحسية والمعنوية، من صفات العبادة، والسجود البارزة في قممات الوجه والنواصي، وصفات الخير المجسدة في سلوكهم وأفعالهم، ثم جاء مثلهم في الإنجيل معتمداً على تشبيههم بالزراع النامي الملتف؛ لإبراز التفافهم حول الرسول صلى الله عليه وسلم، ومؤازرتهم له حتى قوي الإسلام، واشتد عوده، وتكاثر الأمة، ونمت في كيان موحد، كالزراع الذي أخرج شطأه فنمت أعواده الصغيرة على جانبيه، فتكاثر وتآزرت حتى قوي الزرع، واستوى قائماً شديداً، وصورة هذا الزرع في مراحل نموه تشبه صورة المؤمنين، ومراحل نموهم من الضعف إلى القوة، ومن القلة إلى الكثرة حتى قوي وجوده واشتد متحدياً العواصف والرياح، وهذا الوجود يعجب الزراع الذين أسهموا في نموه وحراسته، ويغيب الكفار الذين لا يريدون للإسلام هذا

الوجود القوي (١).

وبعد بناء صورة هذا المثل، واستعراض عناصره، واستحضار صورة الممثل له في الذهن، جاء التعقيب بقوله: ﴿لِيَغِيْبَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

فكان هذا التعقيب بياناً للغرض من التمثيل، وهذه هي الطريقة الأسلوبية المتبعة في الأمثال القرآنية، فبعد تصوير المثل بشكل تفصيلي، يعود التعبير من جديد إلى الممثل له ويتابع الكلام عنه.

ما ضربه الله من مثل حسي لحال اليهود الذين كلفوا العمل بالتوراة ثم لم يعملوا بها، كشبه الحمار الذي يحمل كتباً لا يدري ما فيها، فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

فضرب الله لهؤلاء مثلاً بحال حمار يحمل أسفاراً لا حظ له منها إلا الحمل دون علم ولا فهم؛ ذلك أن علماء اليهود أدخلوا في التوراة ما صيرها مخلوطاً بأخطاء وضلالات، ومتبعاً فيه هوى نفوسهم، وما لا يعدو نفعهم الدنيوي، ولم يتخلقوا بما تحتوي عليه من الهدى والدعاء إلى تزكية النفس، وقد كنمو ما في كتبهم من العهد

(١) البنية الأسلوبية للأمثال القرآنية، عبدالسلام الراغب ص ٧.

إلى الإسلام بضيق الصدر الذي يحصل للمتسلق إلى الأعلى في الجبال؛ إذ تناقص كمية الأكسجين اللازمة والكافية للتنفس، فضيق صدر المتسلق يكاد يخنقه، كذلك الكافر الذي تحجزه أهواؤه وبدعه وكفره عن انشراح صدره.

ومن الأمثال المعنوية قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فالمثل في هذه الآية معنوي، وفيه تمثيل حال من أسلم وتخلص من الشرك بحال من كان ميتاً فأحيي، وتمثيل حال من هو باقٍ في الشرك بحال ميت باقٍ في قبره، ولقد جاء التشبيه بديعاً؛ إذ جعل حال المسلم بعد أن صار إلى الإسلام بحال من كان عديم الخير عديم الإفادة كالميت، فإن الشرك يحول دون التمييز بين الحق والباطل، ويصرف صاحبه عن السعي إلى ما فيه خيره ونجاته، وهو في ظلمة لو أفاق لم يعرف أين ينصرف؟ فإذا هداه الله إلى الإسلام تغير حاله، فصار يميز بين الحق والباطل، ويعلم الصالح من الفاسد، فصار كالحي، وصار يسعى إلى ما فيه الصلاح، ويتنكب عن سبيل الفساد، فصار في نور يمشي به في الناس، وقد تبين بهذا التمثيل تفضيل أهل استقامة

باتباع النبي الذي يأتي لتخليصهم من ربكة الضلال، فهذا وجه ارتباط هذه الآية بالآيات التي قبلها، وبذلك كانت هي كاللثمة لما قبلها. قال في الكشف عن بعضهم: «افتخر اليهود بأنهم أهل كتاب، والعرب لا كتاب لهم، فأبطل الله ذلك بشبههم بالحمار يحمل أسفاراً»^(١).

«وهذا التمثيل مقصود منه تشنيع حالهم، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس المتعارف؛ ولذلك ذيل بزم حالهم: ﴿يَبْسُ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٥]. (وبس) فعل ذم، أي: ساء حال الذين كذبوا بكتاب الله، فهم قد ضموا إلى جهلهم بمعاني التوراة تكذيباً بآيات الله، وهي القرآن»^(٢).

ثانياً: الأمثال المعنوية:

الأمثال المعنوية هي الأمثال التي تتعلق بالأمور المعنوية، أو الغيبية، ومن أمثلتها: قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

يمثل الله ضيق الصدر - وهو أمر معنوي - الذي يصيب الكفار حينما يدعون

(١) انظر: الكشف، الزمخشري ٧ / ٥٩.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨ / ٢١٤.

العقول على أضدادهم^(١).

ومن الأمثال المعنوية أيضًا: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

فالشرك بالله أمر معنوي، والمشارك عندما يقترب شركه يسقط من المرتبة العالية التي وضعها الله للمؤمنين، فيعيش هذا المشارك في اضطراب وقلق وعدم طمأنينة، فيمثل الله لهذه الحالة بمن يخر من السماء فتخطفه الطير، وهو تصوير لحالة التمزق النفسي الذي يعتري المشارك، الذي هو أشبه بحال من يقع من السماء، فتخطفه الطير، أو تهوي الريح به في مكان سحيق، وهي كناية عن أن المؤمن يرفعه إيمانه إلى المكانة العالية في الجنة، بدل قعر جهنم السحيق المعد للكافرين.

والمقصود أن القرآن قد يستخدم بعض العناصر غير الحسية التي لا توجد في بيئة الإنسان المخاطب أو الممثلات المعنوية المعروفة لدى الناس، لكنها لا تدرك بالحواس الخمس، وإنما بالشعور والوجدان، وهي في القرآن قليلة جدًا، ومنها ضرب المثل بالشیطان أو بصفاته، وقد تقرر في عقل كل إنسان بشاعة الشيطان ومظهره وصفاته؛ لذا فضرب المثل به، وإن

كان لا يدرك بالحواس إلا أنه مما يمكن تخيل بشاعته، وهذا هو المراد، كما قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَبَّارِ ۖ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيْطَانِ﴾ [الصافات: ٦٤ - ٦٥].

وكقوله تعالى: ﴿إِذَا فَرَغْتَ مِنْهُمْ يُخَشِّنُونَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٧].

ثالثًا: الأمثال الافتراضية:

ضرب الله العديد من الأمثلة الافتراضية -التقديرية- التي لم تقع، وإنما هي أمثلة افتراضية؛ لقصد التوضيح والتقريب، والغرض منها تقريب المراد للعقل، وتصويره بصورة المحسوس؛ ليحصل بها التذكر والاتعاظ.

ومن هذه الأمثال الافتراضية:

١. ما ضربه الله مثلاً للمشارك والموحد.
قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

حيث ضرب الله هذا المثل الافتراضي؛ لبيان حال من يشرك بالله ومن يوحد، فشبه المشارك بمملوك بين جماعة من الشركاء،

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٤٥.

وقال سبحانه: ﴿أَزْيَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَوْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

والمراد من المثل: تصوير استراحة الموحّد وانجماعه على معبوده، وتعب المشرك وتشيتت باله، وخصوصاً مع فرض التعاكس من الشركاء، فيصير متحيراً، وفي عنيت كبير من الجمع بين أغراضهم، بل ربما يتعذر ذلك ويستحيل للتضاد في الأغراض والتناقض، مع فرض التخالف والتنازع بينهم، واعتبر ذلك بحال الوالدين، إذا اختلفا على الولد فإنه يعسر إرضاؤهما إلا بمشقة واحتيال، وكذلك عابد الأوثان فإنه معذب الفكر بها، وبحراسة حاله منها، ومتى توهم أنه أرضى واحداً في زعمه تفكر فيما يصنع مع الآخر، فهو أبداً في تعب وضلال، وكذلك هو المصانع للناس، الممتحن بخدمة الملوك^(٢).

وجعل الممثل به حالة رجل ليس للاحتراز عن امرأة أو طفل، ولكن لأن الرجل هو الذي يسبق إلى أذهان الناس في المخاطبات والحكايات؛ ولأن ما يراود الرجال من الأعمال أكثر مما يراود المرأة والصبي؛ ولأن الرجل أشد شعوراً بما هو فيه من الدعة أو الكد، وأما المرأة والصبي فقد يغفلان ويلهيان^(٣).

يتنازعون فيه، والمملوك بينهم في أسوأ حال، وشبه من يوحد الله بمملوك لرجل واحد^(١).

و(الشكس): السعي الخلق، يقال: شركاء متشاكسون، أي: متشاجرون لشكاسة خلقهم، و(سلمًا) أي: خالصاً لا يملكه إلا شخص واحد ولا يخدم إلا إياه، وهذه الآية تمثل حالة الكافر والمؤمن، فهناك مشبه ومشبه به، أما المشبه به فهو عبارة عن عبد مملوك له شركاء سيئوا الخلق، متنازعون فيه، فواحد يأمره، وآخر ينهيه، وكل يريد أن يتفرد بخدمته، في مقابل عبد مملوك لرجل يطيعه ويخدمه، ولا يشرك في خدمته شخصاً آخر، فهذان المملوكان لا يستويان.

وأما المشبه فحال الكافر هو حال المملوك الذي فيه شركاء متشاكسون، فهو يعبد آلهة مختلفة لكل أمره ونهيه وخدمته، ولا يمكن الجمع بين الآراء والأهواء المختلفة بخلاف المؤمن، فإنه يأتمر بأمر الخالق الحكيم القادر الكريم.

وهذا المثل وإن كان مثلاً واضحاً مفهوماً لعامة الناس، ولكن له معنى لا يقف عليه إلا أهل التدبر في القرآن، فهو سبحانه بصدد البرهنة على توحيده الذي أشار إليه في قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٣١٦/٥.

(٣) التحرير والتوير، ابن عاشور ٤٠١/٢٣.

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٤٦٨/٢.

٢. ما ضربه الله مثلاً له سبحانه ولمن يعبد من دونه.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

ففي هذه الآية ضرب الله تعالى مثلين افتراضيين له ولمن يعبد من دونه، أحدهما عبد مملوك، أي: رقيق لا يملك نفسه ولا يملك من المال والدنيا شيئاً، والثاني: حرٌّ غنيٌّ، قد رزقه الله منه رزقاً حسناً، من جميع أصناف المال، وهو كريم، محب للإحسان، فهو ينفق منه سراً وجهراً، هل يستوي هذا وذاك؟! لا يستويان مع أنهما مخلوقان غير محال استواءهما، فإذا كانا لا يستويان فكيف يستوي المخلوق العبد الذي ليس له ملك ولا قدرة ولا استطاعة، بل هو فقير من جميع الوجوه بالرب الخالق المالك لجميع الممالك القادر على كل شيء؟! (٣).

فيكون المثل في الآية: مضروباً لله سبحانه وللأوثان، فالله سبحانه هو المالك لكل شيء، ينفق كيف يشاء على عبيده سراً وجهراً، وليلاً ونهاراً، يمينه ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، والأوثان مملوكة

ويتضح من هذا حال المشرك في تقسم عقله بين آلهة كثيرين، فهو في حيرة وشك من رضا بعضهم عنه، وغضب بعض، وفي تردد عبادته إن أَرْضَى بها أحد آلهته لعله يغضب بها ضده، فرغباتهم مختلفة، وبعض القبائل أولى ببعض الأصنام من بعض، ويقابله تمثيل حال المسلم الموحد يقوم بما كلفه ربه، عارفاً بمرضاته، مؤملاً رضاه وجزاءه، مستقر البال بحال العبد المملوك الخالص لمالك واحد، قد عرف مراد مولاه، وعلم ما أوجبه عليه، ففهمه واحد، وقلبه مجتمع، وكذلك الحال في كل متبع حق ومتبع باطل، فإن الحق هو الموافق لما في الوجود والواقع والباطل، مخالف لما في الواقع فمتبع الحق لا يعترضه ما يشوش عليه باله، ولا ما يثقل عليه أعماله، ومتبع الباطل يتعثر به في مزالق الخطي، ويتخبط في أعماله بين تناقص وخطأ^(١).

وهذا يعد من أبلغ الأمثال، فإن الخالص لمالك واحد يستحق من معونته وإحسانه والتفاتة إليه، وقيامه بمصالحه، ما يستحق صاحب الشركاء المتشاكسين^(٢).

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٤٤.

(١) المصدر السابق ٢٣/ ٤٠٢.

(٢) التفسير القيم، ابن القيم ٢/ ١١٠.

ذلك هو معنى الآية التي لا معنى لها غيره، فيحكيه قولاً^(١).

ووصف ﴿عَبْدًا﴾ هنا بقوله: ﴿مَمْلُوكًا﴾ تأكيد للمعنى المقصود، وإشعاراً لما في لفظ عبد من معنى المملوكية المقتضية أنه لا يتصرف في عمله تصرف الحرية، وجملة: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ صفة ﴿عَبْدًا﴾ أي: عاجزاً عن كل ما يقدر عليه الناس، كأن يكون أعمى وزمناً وأصم، بحيث يكون أقل العبيد فائدة^(٢).

والثاني وصف بالرزق الحسن، فهو ينفق منه سرّاً وجهراً، أي: كيف شاء، وهذا من تصرفات الأحرار؛ لأن العبيد لا يملكون رزقاً في عرف العرب.

﴿سِرّاً وَجَهراً﴾ حالان من ضمير ﴿يَمْلِكُونَ﴾، وهما مصدران مؤولان بالصفة، أي: سرّاً وجاهراً بإنفاقه، والمقصود من ذكرهما تعميم الإنفاق كناية عن استقلال التصرف، وعدم الوقاية من مانع إياه عن الإنفاق، وهذا مثل لغنى الله تعالى وجوده على الناس، وجملة ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ بيان لجملة ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً﴾ فبين غرض التشبيه بأن المثل مراد منه عدم تساوي الحاليتين؛ ليستدل به على عدم مساواة أصحاب الحالة الأولى لصاحب

عاجزة، لا تقدر على شيء، فكيف يجعلونها شركاء لي، ويعبدونها من دوني، مع هذا التفاوت العظيم، والفرق المبين.

وقيل: هو مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، ومثل المؤمن في الخير الذي عنده، ثم رزقه منه رزقاً حسناً، فهو ينفق منه على نفسه، وعلى غيره سرّاً وجهراً، والكافر بمنزلة عبد مملوك عاجز لا يقدر على شيء؛ لأنه لا خير عنده، فهل يستوي الرجلان عند أحد من العقلاء؟!

والقول الأول أشبه بالمراد، فإنه أظهر في بطلان الشرك، وأوضح عند المخاطب، وأعظم في إقامة الحجة، وأقرب نسباً بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾^(٣) فَلَا تَصْرِيحُ لِلَّهِ الْأَمْثَالُ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [النحل: ٧٣ - ٧٤].

ثم قال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [النحل: ٧٥].

ومن لوازم هذا المثل وأحكامه أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه منه رزقاً حسناً، والكافر المشرك كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، فهذا ما نبه عليه المثل، وأرشد إليه، فذكره ابن عباس منبهاً على إرادته، لا أن الآية اختصت به فتأمله، فإنك تجده كثيراً في كلام ابن عباس وغيره من السلف في فهم القرآن، فيظن الظان أن

(١) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ١٥/٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢٤/١٤.

الصفة المشبهة بالحالة الثانية، والاستفهام مستعمل في الإنكار، والمقصود من هذه الجملة أنه تبين من المثل اختصاص الله بالإنعام، فوجب أن يختص بالشكر، وأن أصنامهم لا تستحق أن تشكر^(١).

ثم ضرب مثلاً آخر لنفسه الكريمة والأصنام، فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا زَاجِلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦].

وهذا مثال افتراضي ضربه الله تعالى لإبطال المشاركة بينه وبين الأصنام، وقيل: للكافر والمؤمن، والأصوب: كون المثلين معاً في الله مع الأصنام؛ لتكون الآية من معنى ما قبلها، وما بعدها في تبين أمر الله، والرد على أمر الأصنام، كذا قال ابن عجيبة^(٢). وتقريره: أنه لما تقرر في العقول أن الأبكم عاجز لا يساوي في الفضل والشرف الناطق القادر الكامل مع استوائهما في البشرية، فلأن يحكم بأن الجماد لا يكون مساوياً لرب العالمين في المعبودية أولى^(٣). فالأصنام التي لا تسمع ولا تنطق ولا تعقل هي كل على عابدها، يحتاج الصنم إلى

أن يحمله عابده، ويضعه ويقيمه ويخدمه، فكيف يسوونه في العادة بالله الذي يأمر بالعدل والتوحيد، وهو قادر متكلم غني، وهو على صراط مستقيم في قوله وفعله، فقوله صدق ورشد ونصح وهدي، وفعله حكمة وعدل ورحمة ومصلحة، هذا أصح الأقوال في الآية، وهو الذي لم يذكر كثير من المفسرين غيره، ومن ذكر غيره قدمه على الأقوال، ثم حكاها بعده، كما فعل البغوي، فإنه جزم به، وجعله تفسير الآية.

وقيل: إن المثل مضروب لمعبود الكفار، ومعبود الأبرار، والقولان متلازمان، فبعضهم ذكر هذا، وبعضهم ذكر هذا، وكلاهما مراد من الآية، وقيل: كلاهما للمؤمن والكافر^(٤).

وقد قرن في التمثيل هنا حال الرجلين ابتداء، ثم فصل في آخر الكلام، مع ذكر عدم التسوية بينهما بأسلوب من نظم الكلام بديع الإيجاز؛ إذ حذف من صدر التمثيل ذكر الرجل الثاني؛ للاقتصار على ذكره في استنتاج عدم التسوية تفنناً في المخالفة بين أسلوب هذا التمثيل وأسلوب سابقه الذي في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ [النحل: ٧٥].

ومثل هذا التفنن من مقاصد البلغاء كراهية التكرير؛ لأن تكرير الأسلوب بمنزلة

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ٢٢٥.

(٢) انظر: البحر المديد ٣/ ٢٨٦.

(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ١٦٨.

(٤) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص ١٦.

تكرير الألفاظ^(١).

من العلماء من قال: إنه مثل تقديري، كقوله
تبارك وتعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ
أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ
كَدُّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ
هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦].

وكقوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ
مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ
مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:
٢٩].

وما شابه ذلك، فيكون هذا مثلاً تقديرياً
وليس واقعياً، ولكن السياق وما فيه من
المحاورة والأخذ والرد يدل على أنه مثل
حقيقي واقع، فهما رجلان أحدهما أنعم الله
عليه، والثاني لم يكن مثله^(٣).

وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد
ساقنا مثلين واضحين؛ لبيان الفرق الشاسع
بين ذات الله تعالى الخلاق العليم، الرزاق
الكريم، وبين تلك المعبودات الباطلة التي
أشركها الضالون في العبادة مع الله عز
وجل.

والمقصود من قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦] أن الرب سبحانه
على صراط مستقيم، وذلك بمنزلة قوله:
﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

فإن الاستقامة والاعتدال متلازمان،
فمن كان قوله وعمله بالقسط كان مستقيماً،
ومن كان قوله وعمله مستقيماً كان قائماً
بالقسط^(٢).

ومن الأمثال القرآنية ما هو مختلف فيها
هل هي حقيقية أم افتراضية؟

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا
رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْتَهُمَا
بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: ٣٢].

يقول الشيخ ابن عثيمين في تفسير قصة
(صاحب الجنتين) في سورة الكهف: «إن
هذا المثل الذي ضربه الله في هذه الآيات
هل هو مثل حقيقي أو تقديري؟ يعني هل هذا
الشيء واقع أو إنه شيء مقدر؟ والجواب:

(١) التحرير والتنوير ١٤/٢٢٧.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية التفسير ٢/
٤٩٥.

(٣) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين ٦/٦٠.

مبادئ ضرب الأمثال

تنوعت مبادئ ضرب الأمثال في القرآن والتي منها: مجال العقيدة، ومجال الأعمال، ومجال الأخلاق، وهذا ما سنبينه فيما يأتي: أولاً: ميدان العقيدة:

من المجالات المهمة التي تناولتها الأمثال القرآنية مجال العقيدة؛ فقد كانت أمور العقيدة والإيمان والغيبيات التي مثل الله لها في القرآن صعبة الإدراك على الجاهليين، بل كان كثير من المسلمين الأوائل يستصعبون إدراك تلك العقائد؛ لانغماس معظمهم - قبل إسلامهم - في عبادات مادية محسوسة، تمثلت في عبادة الأصنام والأوثان من صخور وخشب وغيرها مما يدركونه بحواسهم؛ فلذلك كانوا بحاجة إلى أمثال تبين لهم المعتقدات البعيدة عن حيز إدراكهم الحسي، كالإيمان بالله وملائكته واليوم الآخر ونعيم الجنة وعذاب النار؛ لذا كانت أغلب الأمثال القرآنية في العقائد والغيبيات، فالأمثال تلعب دوراً مهماً في تحويل الغيبيات إلى مشاهد حاضرة أمام العيان، حتى لا يشرذم الخيال بعيداً في إدراك الحقائق كما هي، وكما يقال: بالمثل يتضح المقال، ومعلوم أن كلام الله واضح، ولكن سياق المثل يستثير في الإنسان نوعاً من التفكير وتدبر

العبرة والعظة؛ لتغيير المسار الخاطئ، والاتجاه إلى الطريق الصحيح، وهذا كثير في القرآن الكريم.

وأبرز الأمثلة على ضرب الأمثال في العقيدة: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

هذا مثل ضربه الله لكلمة (الإيمان) وهي: شهادة أن لا إله إلا الله، فمثلها بالشجرة الطيبة، والشجرة الطيبة المقصود بها (المؤمن)...، فإنه كالشجرة من النخل، لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت، وصباح ومساءً^(١).

فشبه سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع، وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين الذين يقولون: الكلمة الطيبة هي: شهادة أن لا إله إلا الله، فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مرضي لله ثمرة هذه الكلمة... والتشبيه على هذا القول أصبح وأظهر وأحسن، فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل، الباسقة الفرع في السماء علوًا، التي لا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٩١.

وَأَعْمَلُ الصَّالِحِ بَرَفْعُهُ ﴿١﴾ [فاطر: ١٠].

ومثل الله الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة، فقال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

فهذا مثل كفر الكافر، فإنه لا أصل له ولا ثبات، وشبه بشجرة الحنظل، ويقال لها: الشريان (٢).

والكلمة الخبيثة هي الكلمة التي تنبعث من خبث النفس أو ضلال الفكر والمعتقد، فهي على نقیض الكلمة الطيبة؛ لأنها لا تنبعث من إخلاص لله ولرسوله، ولا تكون طيبة في واقعها، ولا في نتائجها، وما يترتب عليها، وأوضحها الكذب. والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة اجتثت من فوق الأرض، أي: أنها ليس لها جذور ممتدة في باطن الأرض، بل هي على السطح، كبعض أنواع النباتات، التي ليس لها جذر تغوص في أعماق الأرض.

ولهذا قال: ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦] أي: استقرار وثبات في باطن الأرض.

ومما يدخل في الكلمة الخبيثة دخولاً أولياً كلمة الشرك والضلال، وكل ما يؤذي الناس في عقيدتهم الصحيحة، وفي شريعة العدل، وفي حياتهم الطيبة، فهي كشجرة

تزال تؤتي ثمرتها كل حين، وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقاً لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب، التي فروعها من الأعمال الصالحة الصاعدة إلى السماء، ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حق رعايتها، فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة الإلهية التي يشتهي قلبه لله، ويشهد بها لسانه، وتصدقها جوارحه، ونفى تلك الحقيقة ولو أزمها عن كل ما سوى الله، وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سبل ربه ذللاً، غير ناكبة عنها، ولا باغية سواها بدلاً، كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلاً، فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الله كل وقت، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى، وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلاماً كثيراً طيباً يقارنه عمل صالح، فيرفع العمل الصالح إلى الكلم الطيب.

كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾

(١) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص ٥٠٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٩٣.

وقت، والكلمة السيئة هي الشرك، والأعمال السيئة ثمارها.

ومن ضرب المثل القرآني في مجال العقيدة: أن الله تعالى ضرب مثلاً لنوره في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْكَوَةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضَيِّقُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [٣٥].

والضمير في قوله: ﴿نُورِهِ﴾ عائد إلى اسم الجلالة، أي: مثل نور الله، أو الدين الذي اختاره، أي: مثله في إنارة عقول المهتدين، فالكلام تمثيل لهيئة إرشاد الله المؤمنين بهيئة المصباح الذي حفت به وسائل قوة الإشراق، وإنما أوتر تشبيهه بالمصباح الموصوف بما معه من الصفات دون أن يشبه نوره بطلوع الشمس بعد ظلمة الليل؛ لقصد إكمال مشابهة الهيئة المشبه بها بأنها حالة ظهور نور يبدو في خلال ظلمة، فتتقشع به تلك الظلمة في مساحة يراد تنويرها، ودون أن يشبه بهيئة بزوغ القمر في خلال ظلمة الأفق؛ لقصد إكمال المشابهة؛ لأن القمر يبدو ويغيب في بعض الليلة بخلاف المصباح الموصوف، وبعد هذا فلأن المقصود ذكر ما حف بالمصباح من

خبيثة لا قرار لها ولا ثمار ولا ظلال ولا أغصان، سوى الشوك الذي يؤذي؛ ولذلك فهي سهلة الاجتثاث مثل الشرك والكفر والضلال، لا يثبت، ولا يستمر، ولا يستند إلى الحق، يتهاوى في أي لحظة، ولم يتوهم المشركون والضالون أنهم أقوياء، بينما كلمة التوحيد تخاطب العقل السليم، والنفس اليقظة، والوجدان الواعي، فلا يستطيع أحد مهما أوتى من قوة وسلطان أن يحرفها؛ لأنها الحق من عند الله.

والمؤدى من هذا التشبيه أن الكلمة الخبيثة لا تدوم في الوجود، بل إنها تنتهي بانتها زمانها، كالسعاية والنميمة والكذب والخديعة والغيبة، ليس لها وجود إلا بمقدار زمانها، وقد تضر، لكن عاقبتها وخيمة، وطعامها موبى، ولا تبقى إلا الكلمة الطيبة، وما يكون لله، وللحق وحده^(١).

وختم الله هذا المثل بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥].

أي: الأمور المتشابهة بين بعضها البعض، فيبين المعنوي بالحسي حتى يصير كأنه محسوس مرئي، ويبين الله سبحانه وتعالى ذلك البيان عسى أن يتذكروا ويعتبروا.

والمقصود أن الكلمة الطيبة هي التوحيد وهو كالشجرة، والأعمال ثمارها في كل

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٤٠٢٠.

فضرب المثل لهم بما يصلون إلى إدراكه^(٢).
وقوله: ﴿الْمَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ [٣٥].

المعنى أنه في قنديل من زجاج؛
لأن الضوء فيه أزهى؛ لأنه جسم شفاف،
﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ [٣٥].

شبه الزجاج في إنارتها بكوكب دري؛
وذلك يحتمل معنيين: إما أن يريد أنها
تضيء بالمصباح الذي فيها، وإما أن يريد
أنها في نفسها شديدة الضوء؛ لصفائها ورقة
جوهرها، وهذا أبلغ لاجتماع نورها مع نور
المصباح.

﴿تَوْقِدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [٣٥]:
المعنى: توقد من زيت شجرة مباركة،
ووصفها بالبركة؛ لكثرة منافعها، أو لأنها
تنبت في الأرض المباركة وهي الشام، ﴿لَا
شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ [٣٥].

قيل: يعني أنها بالشام، فليست من شرق
الأرض ولا من غربها، وأجود الزيتون
زيتون الشام، أو يكون المراد أنها منكشفة
تصيبها الشمس طول النهار، فليست خالصة
للشرق، فتسمى شرقية، ولا للغرب فتسمى
غربية، بل هي غربية شرقية؛ لأن الشمس
تستدير عليها من الشرق والغرب، أو المراد:
أنها في وسط دوحة لا في جهة الشرق من
الدوحة ولا في جهة الغرب، أو أنها من
شجرة الجنة، ولو كانت في الدنيا لكانت

الأدوات؛ ليتسنى كمال التمثيل بقبوله تفريق
التشبيهات وذلك لا يتأتى في القمر.

وقوله: ﴿كَمُصْبَاحٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ﴾ [٣٥].
المقصود: كمصباح في مشكاة، وإنما
قدم (المشكاة) في الذكر؛ لأن المشبه به هو
مجموع الهيئة؛ فاللفظ الدال على المشبه
به هو مجموع المركب المبتدئ بقوله:
﴿كَمُصْبَاحٍ﴾ والمنتهي بقوله: ﴿وَلَوْ لَمْ
تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [٣٥].

فلذلك كان دخول كاف الشبه على كلمة
(مشكاة) دون لفظ (مصباح) لا يقتضي
أصالة لفظ (مشكاة) في الهيئة المشبه بها
دون لفظ (مصباح) بل موجب هذا الترتيب
مراعاة الترتيب الذهني، في تصور هذه الهيئة
لمتخيله حين يلمح الناظر إلى انبثاق، ثم
ينظر إلى مصدره، فيرى مشكاة، ثم يبدو له
مصباح في زجاجة^(١).

والمشكاة هي الكوة غير النافذة تكون
في الحائط، ويكون المصباح فيها شديد
الإضاءة، وقيل: المشكاة العمود الذي
يكون المصباح على رأسه، والأول أصح
وأشهر، والمعنى صفة نور الله في وضوحه
كصفة مشكاة فيها مصباح على أعظم ما
يتصوره البشر من الإضاءة والإنارة، وإنما
شبه بالمشكاة - وإن كان نور الله أعظم -؛
لأن ذلك غاية ما يدركه الناس من الأنوار،

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٢٦٣.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٢٣٥.

شرقية أو غربية.

وقوله: ﴿يَكَادُ زَيْتَانِيٌّ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [٣٥].

مبالغة في وصف صفاته وحسنه ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [٣٥].

يعني: اجتماع نور المصباح وحسن الزجاجاة وطيب الزيت، والمراد بذلك كمال الممثل به، وقوله: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [٣٥].

أي: يوفق الله من يشاء لإصابة الحق^(١). ومن ضرب الأمثلة القرآنية في مجال العقيدة: أن الله تعالى ضرب بيت العنكبوت مثلاً لضعف آلهة الكفار ووهنها، وهو من أحسن الأمثال، وأدلها على بطلان الشرك، وخسارة صاحبه، وحصوله على ضد مقصوده، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنَكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنَكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

فهذا مثل ضربه الله لمن عبد معه غيره، يقصد به التعزز والتقوي والنفع، وأن الأمر بخلاف مقصوده، فإن مثله كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً يقيمها من الحر والبرد والآفات ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ﴾: أضعفها وأوهاها ﴿لَبَيْتُ الْعَنَكَبُوتِ﴾، فالعنكبوت من

الحيوانات الضعيفة، وبيتها من أضعف البيوت، فما ازدادت باتخاذها إلا ضعفاً، كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء، فقراء عاجزون من جميع الوجوه، وحين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم ويستنصرونهم، ازدادوا ضعفاً إلى ضعفهم، ووهناً إلى وهنهم.

فإنهم اتكلوا عليهم في كثير من مصالحهم، وألقوها عليهم، وتخلوا هم عنها، على أن أولئك سيقومون بها، فخذلوهم، فلم يحصلوا منهم على طائل، ولا أنالوهم من معونتهم أقل نائل، فلو كانوا يعلمون - حقيقة العلم - حالهم، وحال من اتخذوهم لم يتخذوهم، ولتبرءوا منهم، ولتولوا الرب القادر الرحيم، الذي إذا تولاه عبده وتوكل عليه كفاه مئونة دينه ودنياه، وازداد قوة إلى قوته، في قلبه وفي بدنه وحاله وأعماله^(٢).

ومن أبلغ الأمثال التي تبين أن المشرك قد تشئت شمله واحتار في أمره: ما بينه تعالى بقوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَحْمَدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

فهذا مثل ضربه الله تعالى للمشرك والموحد، فالمشرك لما كان يعبد آلهة شتى

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٦٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٣١.

شبه بعبد يملكه جماعة متنازعون مختلفون، سيئة أخلاقهم، يتنافسون في خدمته، لا يمكنه أن يبلغ رضاهم أجمعين، فهو في عذاب. والموحد لما كان يعبد الله وحده لا شريك له فمثله كمثل عبد لرجل واحد، قد سلم له، وعلم مقاصده، وعرف الطريق إلى رضاه، فهو في راحة من تشاحن الخلطاء فيه واختلافهم، بل هو سالم لمالكة من غير تنازع فيه، مع رافة مالكة به، ورحمته له، وشفقته عليه، وإحسانه إليه، وتولية لمصالحه، فهل يستوي هذان العبدان؟ والجواب: كلا، لا يستويان أبداً^(١).

والمقصود أن الله تعالى يضرب الأمثال في كتابه من أجل بيان التوحيد، أو من أجل بيان أعداء التوحيد، كما قال الله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

فلما ضرب المثل للذين كفروا أعقب بضرب مثل للذين آمنوا؛ لتحصل المقابلة، فيتضح مقصود المثليين معاً، وجرياً على عادة القرآن في إتباع التهيب بالترغيب، وجعل المثل للذين آمنوا بحال امرأتين لتحصل المقابلة للمثليين السابقين، فهذا مراعاة النظير في المثليين، وجاء أحد المثليين للذين آمنوا لإخلاص الإيمان، والمثل الثاني لشدة التقوى، فكانت امرأة فرعون مثلاً لمئات المؤمنين، ومريم مثلاً للقانتين؛ لأن المؤمنين تبرءوا من ذوي قرابتهم الذين

شبه بعبد يملكه جماعة متنازعون مختلفون، سيئة أخلاقهم، يتنافسون في خدمته، لا يمكنه أن يبلغ رضاهم أجمعين، فهو في عذاب.

والموحد لما كان يعبد الله وحده لا شريك له فمثله كمثل عبد لرجل واحد، قد سلم له، وعلم مقاصده، وعرف الطريق إلى رضاه، فهو في راحة من تشاحن الخلطاء فيه واختلافهم، بل هو سالم لمالكة من غير تنازع فيه، مع رافة مالكة به، ورحمته له، وشفقته عليه، وإحسانه إليه، وتولية لمصالحه، فهل يستوي هذان العبدان؟ والجواب: كلا، لا يستويان أبداً^(١).

والمقصود أن الله تعالى يضرب الأمثال في كتابه من أجل بيان التوحيد، أو من أجل بيان أعداء التوحيد، كما قال الله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

فالله جعل حالة هاتين المرأتين عظة، وتنبيهاً للذين كفروا، أي: ليذكرهم بأن الله لا يصرفه عن وعيده صارف، فلا يحسبون أن لهم شفعاء عند الله، ولا أن مكانهم من

(١) انظر: نور التوحيد وظلمات الشرك، سعيد القحطاني ص ١٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨ / ٣٧٤.

بقوا على الكفر بمكة^(١).

ومن ضرب الأمثال في ميدان العقيدة:
قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَحِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَكَرَهُمْ فِي فُلْمُوسٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَنِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وهي أمثال غاية في البلاغة والتأثير،

وغاية فيما تحويه من نهاية في العظة والعبرة، ونهاية في البلاغة، وإيجاز اللفظ، وحسن التشبيه، وقوة الكناية.

ثانيًا: ميدان الأعمال:

ومن المجالات المهمة التي تناولتها الأمثال القرآنية مجال الأعمال؛ أعمال المؤمنين، وأعمال الكافرين.

فكثرت الأمثال التي توضح بطلان أعمال الكافرين، وتجسم أعمالهم بالرماد المتجمع بعضه فوق بعض، ثم تذروه الرياح، فتتناثر ذراته في كل اتجاه.

يقول تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَواتُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

فيصور الله في هذا المثل أعمال الكفار في مقاومة رسل الله، ومحاربة دينه، بالرماد المتجمع في مكان ما، لكن لا تماسك بين ذراته، وهو خفيف جدًا، فاشتدت به الرياح في يوم عاصف، فنسفت ذلك الرماد، وبددته في كل مكان، حتى لم يعد له وجود حقيقي، كذلك أعمال الكافرين في مواجهة الرسول، وأولياء الله، فهي كالرماد متفرقة مشتتة في كل مكان، ويوم القيامة يجعل تلك الأعمال هباء منثورًا، وهي كناية عن أن أعمال الكافرين لا تقوى على مقاومة قدرة

(١) انظر: المصدر السابق.

الماء والسراب والظلام، فيقول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ
الظَّمْثَانُ مَاءً حَاقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ
اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابًا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ
(٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَفْشِلُهُ مَوْجٌ مِّنْ
فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا
فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكَدُهُ لَمْ يَكْدِرْهَا وَمَنْ لَّمْ يَعْمَلْ
اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [٣٩ - ٤٠].

فالمثل هنا يجمع بين الأعمال وأصحابها
في الضياع؛ إذ نلاحظ التركيز أيضًا على
شخصية الكافر في المثل المعروض إلى
جانب أعماله، فأعماله سراب خادع، وهو
ظمان يظنه ماء، فيجري وراء ظنه، فيكتشف
حقيقة السراب الخادع، وجاء التعقيب
هذه المرة بقوله: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ
حِسَابًا﴾ [٣٩].

لإبراز الغرض الديني من تصوير المثل؛
ولبيان تلك الحياة التي عاشها الكافر
في وهم وظنون وخداع، حتى جاء اليوم
الموعود في الحساب والجزاء.

ثم عقب على هذا المثل بمثل آخر زيادة
في الإيضاح والتنوع في البنى الأسلوبية،
ففي المثل الثاني يركز على الصحراء وما
يتراءى فيها من سراب خادع، والمثل الثاني
يركز على ظلمات البحر تتلاطم أمواجه،
وتغطيه السحب الكثيفة، كما تغطيه ظلمات
الليل، فتندم الرؤية البصرية في هذه

الله وقوته.

وفي مثل آخر يتخذ من (الريح) أيضًا
أداة التدمير، كما كانت في المثل السابق أداة
البعثة للرماد، ونشره في كل مكان، فيقول
الله تعالى: ﴿مِثْلُ مَا يُفْقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا كَمِثْلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرَثَ قَوْمٍ
ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَنَّهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ
وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧].

فيصور الله لنا أعمال أهل الكفر التي
يظنون أنها تفيدهم بأنها مثل السراب في
صحراء قاحلة، تظهر من بعيد للظمان ماء،
لكنه إذا اقترب منه لم يجده شيئًا، فينخدع
من بعيد، وعند الحاجة تنكشف له الحقيقة،
بأنه مجرد سراب لا يسمن ولا يغني من
جوع، كذلك الكفار يظنون أن أعمالهم
في الدنيا تغنيهم شيئًا يوم القيامة، لكن هذا
الزعم الخادع ينكشف لهم يوم القيامة.

فالمثلان مترابطان في بيان ضياع أعمال
الكافرين، والتركيز فيهما على أعمالهم لا
على ذواتهم، كما يلاحظ اتحاد المثلين في
الإفناء والضياع.

ولكن القرآن الكريم يركز في مثل آخر
على شخصية الكافر وآماله بما يتناسب مع
السياق، مع تغيير في البنية الأسلوبية، ففي
المثلين السابقين كان التركيز على الرماد
والزروع والنبات والرياح، وفي المثل الآتي
يتم التركيز على بنية أسلوبية جديدة، مادتها

الظلمات المركبة المتراكمة، ويبرز التقابل في المثلين بين عناصر التعبير والتصوير؛ لاستيفاء تفصيلات المعاني الدينية المطلوبة، فالسراب في المثل الأول يوحي بالأوهام والخراب، والكافر يجري وراء السراب والأوهام، والظلمات المتراكمة من البحر والسحاب وظلمات الليل توحى بانعدام الرؤية، والكفر ظلمات يحجب ما أنفقته يد الخير فلا تفيد صاحبها شيئاً.

ويأتي التعقيب متناسقاً مع جو الليل والظلمات: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [٤٠: ٤٠].

ويبرز نور الله من خلال ذلك هو الوحيد الذي ينيّر للإنسان طريقه في ظلمات الحياة المتراكمة.

وفي الجانب الآخر يضرب الله تعالى الأمثال لأعمال المؤمنين الصالحة، فيقول: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ سَبْعِ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

فشبه سبحانه إنفاق المنفق في سبيله سواء كان المراد به الجهاد أو جميع سبل الخير من كل بر بمن بذر بذراً فأنتبت كل حبة سبع سنابل، اشتملت كل سنبل على مائة حبة، والله يضاعف بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه ونفع

نفقته وقدرها ووقوعها وموقعها، فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص والثبت عند النفقة، وهو إخراج المال بقلب ثابت، قد انشرح صدره بإخراجه، وسمحت به نفسه، وخرج من قلبه قبل خروجه من يده، فهو ثابت القلب عند إخراجه غير جزع ولا هلع، ولا متبعه نفسه، ترجف يده وفؤاده، ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق ومصارفه، وبحسب طيب المنفق ونيته^(١).

ونظير المثل السابق قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ اتِّبَاعًا مَرْضَاتٍ لِلَّهِ وَتَلِيًّا مَنَ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَمٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَأَنَّتْ أَكُلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

وتحت هذا المثل من الفقه أنه سبحانه شبه الإنفاق بالبذر، فالمنفق ماله الطيب لله لا لغيره يبذر ماله في أرض زكية، فمغله^(٢) بحسب بذره، وطيب أرضه، وتعاهد البذر بالسقي، ونفي الدغل والنبات الغريب عنه، فإذا اجتمعت هذه الأمور ولم تحرق الزرع نار ولا لحقته جائحة جاء أمثال الجبال،

(١) التفسير القيم، ابن القيم: ١٥٢.

(٢) الغلة والمغل: الدخل، من كراء دار، وأجر غلام، وفائدة أرض، وأغلت الضيعة: أعطت الغلة.

انظر: المحكم، ابن سيده ٣٨٩/٢.

الخفيف، فشبّه سبحانه في التمثيل السابق عمل المنفق لمرضاة الله تبارك وتعالى بجنة خضراء يانعة تقع على أرض مرتفعة خصبة، تستقبل النسيم الطلق، والمطر الكثير النافع، وقيد المشبه به بيستان مرتفع عن الأرض؛ لأن تأثير الشمس والهواء فيه أكمل، فيكون أحسن منظراً، وأزكى ثمرًا، أما الأماكن المنخفضة التي لا تصيبها الشمس في الغالب إلا قليلاً فلا تكون كذلك.

ووجه التمثيل في هذا المثل أن المنفق ابتغاء مرضاة الله هو في إخلاصه وسخاء نفسه وإخلاص قلبه كالجنة الجيدة التربة الملتفة الشجر، العظيمة الخصب في كثرة بره وحسنه، فهو وجود بقدر سعته، فإن أصابه خير كثير أغدق ووسع في الإنفاق على ذوي الحاجات، وإن أصابه خير قليل أنفق منه بقدره، فخيرته دائم، وبره لا ينقطع؛ لأن الباعث عليه ذاتي لا عرضي كأهل الرياء، وأصحاب المن والإيذاء، ف(الوابل) و(الطل) على هذا عبارة عن سعة الرزق، وما دون السعة.

ولك أن تقول: إن وجه التمثيل هنا أن النية الصالحة في الإنفاق كالوابل للجنة، فيها تكون النفقة نافعة للناس؛ لأن أصحابها يتحرون مواضعها، فيضعون نفقتهم موضع الحاجة، لا ييذرون بغير روية، وأن أمثال هؤلاء المخلصين لا يخيب قاصدهم؛ لأن

وكان مثله كمثل جنة بربوة، وهي المكان فيه نصب الشمس والرياح، فترى الأشجار هناك أتم تربية، فنزل عليها من السماء مطر عظيم القطر متتابع فرواها ونماها، فأنت أكلها ضعفي ما تؤتيه غيرها بسبب ذلك الوابل، وإن لم يصبها وابل فطل، والطل: مطر صغير القطر، يكفيها لكرم منبتها تركو على الطل، وتنمي عليه، مع أن في ذكر نوعي الوابل والطل إشارة إلى نوعي الإنفاق الكثير والقليل، فمن الناس من يكون إنفاقه وابلًا، ومنهم من يكون إنفاقه طلاً، والله لا يضيع مثقال ذرة^(١).

ثالثاً: ميدان الأخلاق:

جاءت الأمثال القرآنية ترغب في كثير من الأخلاق والسلوكيات الحسنة، وتحذر من غيرها، مستعينة بالترغيب والترهيب والإقناع العقلي.

ففي جانب الأخلاق الحسنة، قال تعالى -وهو يشبه حال المخلص في النفقة في سبيل الله-: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَأْتَتْ أَكْطُلُهَا ضَعْفَتٍ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

والربوة: هي التل المرتفع، والطل: المطر

(١) الأمثال في القرآن الكريم، ابن القيم ص ٥١.

رحمة قلوبهم لا يغور معينها، فإن لم تصبه بوابل من عطائها لم يفته طله، فهم كالجنة التي لا يخشى عليها اليبس والزوال. وهذا التمثيل يفيد أن إنفاق المؤمن قد يكون إنفاقاً كثيراً مثل المطر الغزير، وقد يكون إنفاقاً قليلاً مثل المطر القليل، وفي كل خير، وهو يعبر عن اهتمام المؤمن بغيره، والعمل على النهوض بأمتة قدر استطاعته، وبحسب إمكاناته.

وضرب الله تعالى مثلاً في الإنجيل لعباده المؤمنين أنهم كالزرع، يظهر في أول أمره رقيقاً ضعيفاً متفرقاً، ثم ينبت بعضه حول بعض، ويغلظ ويتكامل حتى يقوى ويشد، وتعجب جودته أصحاب الزراعة العارفين بها؛ فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا في أول الأمر في قلة وضعف، ثم لم يزلوا يكثرون ويزدادون قوة، فقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ اللَّهُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:

[٢٩].

فبعد أن ذكر الله وصفهم في التوراة

ذكر مثلهم في الإنجيل، فهم موصوفون فيه بوصف آخر، فهم في كمالهم وتعاونهم ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَآزَرَهُ﴾ أي: أخرج فراخه، فآزرتة فراخه في الشباب والاستواء، ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ ذلك الزرع، أي: قوي وغلظ ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾: جمع ساق، ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ من كماله واستوائه وحسنه واعتداله، كذلك الصحابة رضي الله عنهم هم كالزرع في نفعهم للخلق، واحتياج الناس إليهم، فقرة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوة عروق الزرع وسوقه، وكون الصغير والمتأخر إسلامه قد لحق الكبير السابق وآزره وعاونه على ما هو عليه من إقامة دين الله والدعوة إليه، كالزرع الذي أخرج شطأه فأزره فاستغلظ؛ ولهذا قال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ حين يرون اجتماعهم وشدتهم على دينهم، وحين يتصادمون معهم في معارك النزال ومعامع القتال^(١).

إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع، صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة، حالاتها الظاهرة والمضمرة، فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ ولقطة تصور هيبتهم في عبادتهم ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ ولقطة تصور قلوبهم، وما يشغلها ويجيش بها

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٩٥.

أخبت الحيوانات وأخسها نفساً؛ ذلك أن المنحط في أهوائه شديد اللهف على الدنيا، قليل الصبر عنها، فلهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه، فقال:

﴿وَأَقْلَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْفَاوِيسِ﴾ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥]

- [١٧٦]. وهذه الآيات وإن نزلت بسبب رجل من بني إسرائيل^(٢) إلا أنه كما يقول المحققون من أهل العلم: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبرنا ويقول: ﴿وَأَقْلَ عَلَيْهِمْ﴾ أخبر أمتك يا محمد! نبأ ذلك الرجل الذي آتيناه آياتنا؛ آتيناه العلم، وآتيناه الآيات والدلالات الواضحات على عظمة الله، فبذل أن يعمل بها ويستمر عليها، انسلخ منها، والانسلخ عن الشيء هو: تركه مع عدم الرغبة في العودة إليه، أي: انسلخ منها كما تنسلخ الحية من جلدها، والمراد أنه خرج منه بالكلية، بأن كفر بها، ونبذها وراء ظهره، ولم يتفجع بما اشتملت عليه من عظات وإرشادات، وحقيقة السلخ: كشط

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٠٩.

﴿يَسْتَفْتُونَ فَضَلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ ولقطة تصور أثر العبادة والتوجه إلى الله في سمتهم وسحتهم وسماتهم ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ وهذه صفتهم فيها، ولقطات متتابعة تصورهم كما هم في الإنجيل^(١).

وفي جانب الأخلاق السيئة:

ضرب الله مثلاً لحال المنفق رياءً حيث لا يحصل من إنفاقه على شيء من الثواب، فقال تعالى: ﴿لَا يُطْلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فقد مثل حال المرائي في إنفاقه بحال الحجر الأملس يكون عليه تراب، فيصبيه مطر غزير، فيذهب بما عليه من تراب، فأعمال المرائي مثل التراب الذي كان على الحجر، فإنها تذهب هباء، ولا يجد لها ثواباً، وفي هذا المثل تقرير لخيبة المرائي على وجه أبلغ ما يكون.

ومن ذلك تشبيه المتكس بالكلب في كثرة مساوئه:

حيث ضرب الله مثلاً لحال العالم المنحط في أهوائه بحال الكلب الذي هو

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٤٨٦.

الجلد وإزالته بالكلية عن المسلوخ عنه، ويقال لكل شيء فارق شيئاً على أتم وجه: انسلخ منه، وفي التعبير به ما لا يخفى من المبالغة^(١).

فالانسلاخ حقيقة خروج جسد الحيوان من جلده حينما يسلم عنه جلده، والسلخ: إزالة جلد الحيوان الميت عن جسده، واستعير في الآية للانفصال المعنوي، وهو ترك التلبس بالشيء، أو عدم العمل به، ومعنى الانسلاخ عن الآيات الإقلاع عن العمل بما تقتضيه؛ وذلك أن الآيات أعلمته بفساد دين الجاهلية^(٢).

وقوله: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

أي: فلهقه الشيطان وأدركه فصار هذا الإنسان بسبب ذلك من زمرة الضالين الراسخين في الغواية، مع أنه قبل ذلك كان من المهتدين، وفي التعبير بقوله: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ مبالغة في ذم هذا الإنسان وتحقيره، جعل كأنه إمام للشيطان، والشيطان يتبعه، فهو على حد قول الشاعر^(٣):

(١) الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ١٧٣٩.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ١٦٧٣.

(٣) البيتان في ديوان محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني ص ١٣١ من قصيدته الدالية التي مطلعها:

سلامي على نجد ومن حل في نجد
وإن كان تسليمي على البعد لا يجدي

وكنْتُ أرى من جند إبليس فارتقى
بي الدهر حتى صار إبليس من جندي
فلو مات قبلي كنت أدركت بعده

دقائق كفر ليس يدركها بعدي
ورببت أفعال الانسلاخ والاتباع والكون
من الغاوين بقاء العطف على حسب ترتيبها
في الحصول، فإنه لما عاند ولم يعمل
بما هداه الله إليه حصلت في نفسه ظلمة
شيطانية، مكنت الشيطان من استخدامه
وإدامة إضلاله، فالانسلاخ عن الآيات
أثر من وسوسة الشيطان، وإذا أطاع المرء
الوسوسة تمكن الشيطان من مقاده، فسخره
وأدام إضلاله، وهو المعبر عنه بـ(أُتبعه)
فصار بذلك في زمرة الغواة المتمكنين من
الغواية^(٤).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٦].

أفاد أن تلك الآيات شأنها أن تكون سبباً
للهداية والتزكية لو شاء الله له التوفيق،
وعصمه من كيد الشيطان وفتنته، فلم ينسلخ
عنها، وهذه عبرة للموفقين؛ ليعلموا فضل
الله عليهم في توفيقهم، فما ألطف نسبة
إتيان الآيات والرفع إليه تعالى، ونسبة
الانسلاخ والإخلاق إلى العبد، مع أن الكل
من الله تعالى؛ إذ فيه من تعليم العباد حسن
الأدب ما فيه.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٧٦.

الدنيا المعرض عن الآيات بعد إيتائها إن وعظته فهو لإيثاره الدنيا على الآخرة لا يقبل الوعظ، وإن تركت وعظه فهو حريص أيضًا على الدنيا وشهواتها.

فهذا الضال تحمل كلفة اتباع الدين الصالح، وصار يطلبه في حين كان غير مكلف بذلك في زمن الفترة، فلقي من ذلك نصبا وعناء، فلما حان حين اتباع الحق بيعته محمد صلى الله عليه وسلم تحمل مشقة العناد والإعراض عنه في وقت كان جديرا فيه بأن يستريح من عنائه لحصول طلبته، فكانت حالته شبيهة بحالة الكلب الموصوف باللهث، فهو يلث في حالة وجود أسباب اللهث من الطرد والإرهاب والمشقة، وهي حالة الحمل عليه، وفي حالة الخلو عن ذلك السبب، وهي حالة تركه في دعة ومسالمة، والذي ينيه على هذا المعنى هو قوله: ﴿أَوْ تَرُكُهُ يَلْهَثُ﴾.

ونلاحظ أنه ليس لشيء من الحيوان حالة للتشبيه بها في الحالتين غير حالة الكلب اللاهث؛ لأنه يلث إذا أتعب وإذا كان في دعة، فاللهث في أصل خلقة، وهذا التمثيل من بلاغة القرآن، فإن اللهث حالة تؤذن بحرج الكلب من جراء عسر تنفسه عن اضطراب باطنه، وإن لم يكن لا اضطراب باطنه سبب آتٍ من غيره، فمعنى ﴿إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ﴾ إن تطارده وتهاجمه.

فالمعنى: ولو شئنا لزداد في العمل بما آتياه من الآيات، فلرفعه الله بعمله، والرفعة مستعارة لكمال النفس وزكائها؛ لأن الصفات الحميدة تخيل صاحبها مرتفعا على من دونه، أي: ولو شئنا لاكتسب بعمله بالآيات فضلا وزكاء وتميزا بالفضل، فمعنى ﴿لَرْفَعْتَهُ﴾ ليسرنا له العمل بها الذي يشرف به، وقد وقع الاستدراك على مضمون قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرْفَعْتَهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٦].

بذكر ما يناقض تلك المشيئة الممتنعة، وهو الاستدراك بأنه انعكست حاله، فأخلد إلى الأرض، أي: ركن ومال إلى الأرض، والكلام تمثيل لحال المتلبس بالنقائص والكفر بعد الإيمان والتقوى بحال من كان مرتفعا عن الأرض فنزل من اعتلاء إلى أسفل، فبذكر الأرض علم أن الإخلاق هنا تكون إلى السفلى، أي: تلبس بالنقائص والمفاسد، واتباع الهوى ترجيح ما يحسن لدى النفس من النقائص المحبوبة على ما يدعو إليه الحق والرشد، فالاتباع مستعار للاختيار والميل، والهوى شاع في المحبة المذمومة الخاسرة عاقبتها^(١).

وقوله: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

فهو دائم اللهث في الحالين؛ لأن اللهث طبيعة فيه، وكذلك حال الحريص على

(١) المصدر السابق ٩/ ١٧٧.

فهذا تشبيه تمثيل مركب متترعة فيه الحالة المشبهة والحالة المشبه بها من متعدد، ولما ذكر ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ في شق الحالة المشبه بها تعين أن يكون لها مقابل في الحالة المشبهة، وتتقابل أجزاء هذا التمثيل بأن يشبه الضال بالكلب، ويشبه شقاؤه واضطراب أمره في مدة البحث عن الدين يلهث الكلب في حالة تركه في دعة تشبيه المعقول بالمحسوس، ويشبه شقاؤه في إعراضه عن الدين الحق عند مجيئه يلهث الكلب في حالة طرده وضربه تشبيه المعقول بالمحسوس^(١).

وتأمل ما في هذا المثل من الحكم والمعاني، فمنها قوله: ﴿ءَاتَيْنَاهُ إِبْرَاهِيمَ﴾ فأخبر سبحانه أنه هو الذي آتاه آياته، فإنها نعمة، والله هو الذي أنعم بها عليه، فأضافها إلى نفسه، ثم قال: ﴿فَأَنْسَلَخْنَا مِنْهَا﴾ أي: خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها، وفارقها فراق الجلد يسلك عن اللحم، ولم يقل: فسلكناه منها؛ لأنه هو الذي تسبب إلى انسلاخه منها باتباع هواه، ومنها قوله سبحانه: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: لحقه وأدركه...، وكان محفوظاً محروساً بآيات الله، محمي الجانب بها من الشيطان، لا ينال منه شيئاً إلا على غرة وخطفة، فلما أنسلخ من آيات الله ظفر به الشيطان ظفر

الأسد بفريسته ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ العاملين بخلاف علمهم، الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه، كعلماء السوء.

ومنها: أنه سبحانه قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم، فإن هذا كان من العلماء، وإنما هي باتباع الحق، وإيثاره وقصد مرضاة الله، فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه، ولم يرفعه الله بعلمه، ولم ينفعه به، فنعوذ بالله من علم لا ينفع، وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم، وإن لم يرفعه الله فهو موضوع لا يرفع أحده رأساً، فإن الخافض الرافع هو سبحانه، والمعنى: لو شئنا فضلناه وشرفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناه.

وقوله: ﴿وَلَنَكْنُهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ المخلد من الرجال هو الذي يبطئ مشيته، ومن الدواب التي تبقى ثناياها إلى أن تخرج رباعيتها^(٢).

(٢) التفسير القيم، ابن القيم ص ٤٤٥.

(١) انظر: المصدر السابق.

مقاصد ضرب المثل

مقاصد ضرب الأمثال في القرآن لا تنحصر، لكنها ترد في جملتها إلى مقصد واحد، وهو بيان الحق الذي جاءت به الرسل لهداية الخلق، ودعوتهم إلى عبادة الله وحده، والانقياد لطاعته؛ وذلك بوضع منهج متكامل روعيت فيه مصالح العباد في العاجل والآجل^(١).

وقد جمع الزركشي عددًا من فوائد ضرب الأمثال في القرآن فذكر: التذكير، والوعظ، والحث والزجر، والاعتبار، وترتيب المراد للعقل، وبيان تفاوت الأجر، والمدح والذم، والثواب والعقاب، وعلى تفخيم أمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر أو إبطاله، فامتن الله علينا بذلك لما تضمنت هذه الفوائد، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨].

«ومن حكمته تعليم البيان، وهو من خصائص هذه الشريعة، والمثل أعون شيء على البيان»^(٢).

وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر

(١) انظر: دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل ص ٣٦١، ٣٥٤.

(٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١/ ٤٨٧.

وتحقيره، وعلى تحقيق أمر أو إبطاله.

وإذا كان العلماء قد أظهرُوا أهمية المثل البيانية والفنية الإبداعية، وأثر ذلك في النفس وفاعليته، فإن هناك أمورًا أخرى شرعية تستفاد من ضرب الأمثال في القرآن، وقد ذكر الإمام الماوردي أن «من أعظم علم القرآن علم أمثاله، والناس في غفلة عنه؛ لاشتغالهم بالأمثال، وإغفالهم الممثلات، والمثل بلا ممثل كالفرس بلا لجام، والناقة بلا زمام»^(٣).

فالأمثال القرآنية جاءت شاملة متضمنة كل ما تقدم، ولها من القدرة ما يمكنها من تحقيق أغراضها وغاياتها عبر صور بيانية، ومشاهد فنية، تلقي بظلالها وأثارها الفاعلة في النفس البشرية، والتي ما سيقَّت هذه الأمثال إلا لها ومن أجلها؛ بغية خيرها وصلاحها في حالها ومآلها.

وعلى هذا يمكننا القول: إن الأمثال القرآنية تعد مقاييس عقلية، وقواعد عامة، وكماليات شاملة، وعلامات هادية شاخصة ومتنصبة، تصلح أن يقاس عليها ما يؤكد علوها على الحصر، مما يمكن أن يكون حسيًا أو عقليًا أو نفسيًا، حقيقة أو مجازًا، وهي تدور حول محور واحد، متمثل في هذا الإنسان بعناصره المختلفة، وأبعاده المتجاورة والمتألّفة: العقل، والروح،

(٣) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٢/ ١٠٤١.

والحسن، والوجدان، تحقيقًا لتطلعاته إلى سعادته في معاشه ومعاده.

وعلى هدي هذا المفهوم للمثل القرآني نستطيع الوقوف على معنى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

أولاً: التوضيح والتقريب:

التوضيح والتقريب أبرز مقاصد الأمثال. فيقرب صورة المُمَثَّل له إلى ذهن المخاطب؛ وذلك بأن يكون المخاطب جاهلاً بحقيقة الشيء الممثل له فيأتي المثل القرآني لرفع هذه الجهالة، وإزالة هذا الغموض.

قال ابن القيم: «وقد ضرب الله ورسوله الأمثال للناس؛ لتقريب المراد، وتفهم المعنى، وإيصاله إلى ذهن السامع، وإحضاره في نفسه بصورة المثل الذي مثل به، فقد يكون أقرب إلى تعقله وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره، فإن النفس تأنس بالنظائر والأشياء، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظر، ففي الأمثال من تأنيس النفس، وسرعة قبولها، وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمر لا يجحده

أحد، ولا ينكره، وكلما ظهرت الأمثال ازداد المعنى ظهوراً ووضوحاً، فالأمثال شواهد المعنى المراد، وهي خاصية العقل ولبه وثمرته»^(١).

ويقول رحمه الله: «إن النفس تأنس بالنظائر والأشياء الأنس التام، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظر، وبالأمثال يزداد المعنى ظهوراً ووضوحاً، فالأمثال شواهد المعنى المراد، ومزكية له، فهي كزراع أخرج شطأه فازره فاستغلظ فاستوى على سوقه، وهي خاصة العقل ولبه وثمرته»^(٢).

وقد أشار الزمخشري أيضاً إلى هذا المقصد من الأمثال، حيث قال: «ولضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر شأنٌ ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبيكيت للخصم الألد، وقمعٌ لسورة الجامح الأبي، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وسائر كتبه أمثاله»^(٣).

وقال أبو السعود: «إن التمثيل ليس إلا إبراز المعنى المقصود في معرض الأمر المشهور، وتحلية المعقول بحلية المحسوس، وتصوير أوابد المعاني بهيئة

(١) أعلام الموقعين ١/ ٢٩١.

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٤٠.

(٣) الكشف، الزمخشري ١/ ١٩٥.

أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا
يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَغْبَضْنَا الْأَرْضَ زُرْقُوهَا
وَأَزْيَيْنَا وَطَرَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدَرُوا عَلَىٰهَا
أَنَّهُمْ أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا
كَأَن لَّمْ يَغْنَبْ إِلَّا الْأَنْعَامُ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَفْكُرُونَ ﴿٢٤﴾ [يونس: ٢٤].

فالمثل المضروب هنا لتقريب وتوضيح
حال الدنيا، وهو مثل قصير موجز، يتناسق
مع حال الدنيا في سرعة زوالها، وقد
أسهمت البنية الأسلوبية له في إلقاء ظل
الفناء في حس الإنسان وذهنه، وهو يتابع
الماء النازل بسرعة ممتزجاً بنبات الأرض،
ثم يغدو هشيماً تذروه الرياح من غير
تصوير للنبات النامي بشماره وأزهاره، فيبقى
الإنسان مشدوداً إلى صورة النهاية للحياة لا
إلى بهجتها ولذاتها.

يقول ابن القيم معلقاً على هذا المثل:
«شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في
عين الناظر، فتروقه بزيئها، وتعجبه فيميل
إليها ويهوها اغتراراً منه بها، حتى إذا ظن أنه
مالك لها قادر عليها سلبها بغتة أحوج ما كان
إليها، وحيل بينه وبينها، فشبها بالأرض
التي ينزل الغيث عليها فتعشب، ويحسن
نباتها، ويروق منظرها للناظر، فيغتر به،
ويظن أنه قادر عليها، مالك لها، فيأتيها أمر
الله، فتدرك نباتها الآفة بغتة، فتصبح كأن لم
تكن قبل، فيخيب ظنه، وتصبح يده صفراً

المأنوس لاستمالة الوهم واستنزاله عن
معارضته للعقل، واستعصائه عليه في
إدراك الحقائق الخفية، وفهم الدقائق الأبية؛
كي يتابعه فيما يقتضيه، ويشايعه إلى ما لا
يرتضيه؛ ولذلك شاعت الأمثال في الكتب
الإلهية، والكلمات النبوية، وذاعت في
عبارات البلغاء، وإشارات الحكماء...،
فالتمثيل ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم
للعقل، واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه،
وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبي،
وقمع سورة الجامح الأبي، كيف لا وهو
رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية،
وإبرازها لها في معرض المحسوسات
الجلية، وإبداء للمنكر في صورة المعروف،
وإظهار للوحشي في هيئة المألوف»^(١).

هكذا يأتي المثل لزيادة الإفهام
والتوضيح والتذكير؛ ولتصوير المعنوي
بالمحسوس والمشهد بالغائب، فيكون
وقعه بذلك أمكن في النفوس، وأشد علقه
بالقلوب، وهذا من شأنه أن يبعد الحيرة
والشكل عن المترددين، وضعاف الإرادة.

ومن الأمثلة القرآنية التي جاءت لهذا
الغرض -وهو التوضيح والتقريب-: ما
ضربه الله تعالى من مثل لحال الدنيا،
وركون الناس إليها، والإعراض عن الآخرة،
قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٧٢.

منها، فكذا حال الدنيا والوائق بها سواء، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس»^(١).

وتشبيه الحياة الدنيا بالنبات يحتمل وجوهاً:

أحدها: أن عاقبة هذه الحياة التي ينفقها المرء في هذه الدنيا كعاقبة هذا النبات الذي حين عظم الرجاء في الانتفاع به وقع اليأس منه؛ لأن المتمسك بالدنيا إذا عظمت رغبته فيها يأتيه الموت، وهو معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فِرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤].

وثانيها: أنه تعالى بين أنه كما لم يحصل لذلك الزرع عاقبةٌ تحمد، فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها لا يحصل له عاقبة تحمد. وثالثها: أن هذا التشبيه كقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْءًا مِّنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

أي: لما صار سعي هذا الزرع باطلاً بسبب حدوث المهلك فكذلك سعي المغتر بالدنيا.

ورابعها: أن مالك هذا البستان لما أتعب نفسه في عمارته، وكذلك الروح، وعلق قلبه بالانتفاع به، فإذا حدث السبب المهلك صار العناء الشديد الذي تحمله في الماضي سبباً لحصول الشقاء الشديد له في المستقبل، وهو ما يحصل في قلبه من الحسرات.

فكذلك حال من أحب الدنيا، وأتعب

نفسه في تحصيلها، فإذا مات وفاته كل ما نال صار العناء الذي تحمله في تحصيل الدنيا سبباً لحصول الشقاء العظيم له في الآخرة.

وخامسها: لعله تعالى إنما ضرب هذا المثل لمن لا يؤمن بالمعاد؛ لأننا نرى الزرع الذي انتهى إلى الغاية في الحسن، ثم إن ذلك الحسن يزول بالكلية، ثم تصير تلك الأرض موصوفة بتلك الزينة مرة أخرى، فذكر تعالى هذا المثل؛ ليدل على أن من قدر على ذلك كان قادراً على إعادة الأحياء في الآخرة؛ ليجازيهم على أعمالهم^(٢).

وقد قامت (الفاء العاطفة) في قوله: ﴿فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتَ الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٢٤].

في تسريع حركة التصوير لأطوار النبات التي هي في حقيقتها أطوار الحياة، وجاء التعقيب على المثل في الآية الأخرى بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]؛ لترسيخ معنى القدرة الإلهية على الإحياء بعد الإماتة، كي لا تكون صورة الفناء هي الصورة النهائية للإنسان بعد المثل المضروب.

وقوله: ﴿فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتَ الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٢٤].

فلو قلنا: بأن الباء للمصاحبة يكون معناه أي: اختلط مع ذلك الماء نبات الأرض؛ لأن

(١) التفسير القيم، ابن القيم ص ٤٧٠.

(٢) الباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨ / ٤٥١.

ومن مقاصد ضرب المثل في القرآن الترغيب بالأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة التي تهذب النفوس وترقق الطباع.

ف نجد المثل القرآني يحث النفس الجموح على إنفاق المال في سبيل الله، ويعد المتقين وعدًا حسنًا على ذلك، ويضاعف لهم الأجر في صورة اعتمد فيها التشبيه صيغة تهيج المناخ النفسي للبر بتفاعلها مع الجو الداخلي عند الإنسان، حيث يجد إنفاقه مضاعفًا بإمداد غير مترقب مما يدفعه عن طيب خاطر، وتسليم لأمر الله إلى الإنفاق بيد مبسطة، يقول تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةُ حَبٍّ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقد يطنب المثل القرآني في الأمور الترغيبية، ويوالي ضرب الأمثال لها، ويحذر من مخالفتها، ويريدها خالصة لله وحده، ويستقصي المعاني على أكمل وجه، ويأتي بجميع لوازمها ومتعلقاتها، وهو ما يسمى عند البلاغيين (الاستقصاء)، وهو نوع من أنواع الإطناب بذكر محاسن ما يرغب فيه، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١١﴾ تُوَفَّى أَكْلُهَا كُلِّ حِينٍ يَأْذِنُ رَبُّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ

المطر ينفد في خلل النبات، وإن كانت الباء للسببية يكون المراد أنه اختلط بسبب الماء بعض النبات ببعض، حيث إن الماء صار سببًا لرشده، والتفاف بعضه ببعض.

وقوله: ﴿إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْيَنْتَ﴾ [يونس: ٢٤].

تعبير رائع حيث جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس؛ إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون، فاكستتها وتزينت بغيرها من ألوان الزينة، وقوله: ﴿فَقَدْ رُؤِيتَ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ٢٤].

أي: متمكنون من استثمارها والانتفاع بثبوتها، وقوله: ﴿أَتَنهَا أَمْرًا﴾ [يونس: ٢٤]. كناية عن نزول بعض الآفات على الجنات والمزارع حيث يجعلها ﴿حَصِيدًا﴾ شبيها بما يحصد من الزرع في استئصاله.

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَقَفْ﴾ [يونس: ٢٤] بمنزلة قوله: كأن لم ينبت زرعها، على وجه يلتف بعضه ببعض، يروق الإنسان منظره، فلم يزل على تلك الحال إلى أن يتقل إلى حالة لا نجد فيها غضاضة، وهذا ما يعبر عنه القرآن بقوله: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ [الكهف: ٤٥].

أي: كثيرًا مفتتًا، تذروه الرياح، فتقلعه من موضعه إلى موضع، فانقلاب الدنيا كانقلاب هذا النبات.

ثانيًا: الترغيب:

لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمِثْلُ
كَلِمَةِ خَيْثَ كَشَجَرَةٍ خَيْثَ اجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ
الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٦].

يقول الرازي: «إن المقصود من ضرب
الأمثال أنها تؤثر في القلوب ما لا يؤثره
وصف الشيء في نفسه؛ وذلك لأن الغرض
في المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب
بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته،
ويصير الحس مطابقاً للعقل، وذلك في نهاية
الإيضاح، ألا ترى أن الترغيب إذا وقع في
الإيمان مجرداً عن ضرب مثل له لم يتأكد
وقوعه في القلب كما يتأكد وقوعه إذا مثل
ب، وإذا زهد في الكفر بمجرد الذكر لم
يتأكد قبحه في العقول، كما يتأكد إذا مثل
بالظلمة، وإذا أخبر بضعف أمر من الأمور
وضرب مثله بنسج العنكبوت كان ذلك أبلغ
في تقرير صورته من الإخبار بضعفه مجرداً؛
ولهذا أكثر الله تعالى في كتابه المبين، وفي
سائر كتبه أمثاله، قال تعالى: ﴿وَلِئَلَّا
يَأْمَنُوا نُنْزِلُهَا لِلنَّاسِ﴾ [العنكبوت:
٤٣]»^(١).

واتخذها المربون وسيلة للترغيب،
ويستطيع معلم التربية الإسلامية أن يستخدم
ضرب الأمثال للترغيب ولتقريب المعاني
المجردة التي ترد في القرآن والسنة إلى
أذهان التلاميذ؛ ويمكنه أن يستخدم هذا

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٣٤٥.

الأسلوب كوسيلة للتهذيب الخلقي من
حثة على الخير أو دفع للشر، فالأمثال بما
فيها من تجسيد للمعاني المجردة أقرب إلى
النفوس في إحداث الترغيب والتهريب من
الوعظ المباشر.

ومن الأمور التي رغب فيها المثل
القرآني: الجنة.

قال تعالى: ﴿مِثْلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ
الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ
وَوُظْلُهَا يَبْكَ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى
الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]

والإشارة إلى الجنة بصفاتها بحيث
صارت كالمشاهدة ترغيباً فيها، أي: صفة
الجنة التي وعد الله بها الذين يخشونه
أنها تجري من تحت أشجارها وقصورها
الأنهار، ثمرها لا ينقطع، وظلها لا يزول
ولا ينقص، تلك المثوبة بالجنة عاقبة الذين
خافوا الله، فاجتنبوا معاصيه، وأدوا فرائضه،
وعاقبة الكافرين بالله النار.

ونظيره: ﴿مِثْلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا
أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ.
وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى
وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْفَرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمْ هُوَ
خَلَائِفٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾
[محمد: ١٥].

فهذا المتاع والاستراوح، ومشهد الظل
الدائم، والثمر الدائم، والأنهار المتنوعة،

ثالثاً: التنفير:

ومن مقاصد ضرب المثل في القرآن التنفير من الأعمال السيئة والأخلاق القبيحة، كقوله تعالى: ﴿وَأَقْلَعَتْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايِينَآ فَأَسْلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦].

يكشف هذا المثل الأبعاد النفسية التي اشتملت عليها شخصية الذي يتخلى تماماً عن آيات الله، ويعرض عنها ابتغاء عرض زائل، ومتاع قليل، وقد استعار كلمة (انسلك) وعبر بها تعبيراً دقيقاً عن مدى التصميم في الإعراض والتخلي، وصور بذلك حالة النزاع الشديد في مفارقتها، فهذا التجرد من عناصر الخير يوحى بكيفية تجرد الشاة عن أهابها، ونزعها لردائها أثناء السلخ في مشهد أليم، حتى عادت سنحاً آخر في الهيكل والصورة والتحول، وكذلك أمر هذا الرجل؛ إذ استحال إلى حقيقة أخرى، جوفاء مترهلة، وتأتي الصور متقاطرة العبارات والعبائر، مجلجلة الوقع، فيعقب صورة الانسلاخ صورة الكلب اللاهث في حالتيه، وإخلاده إلى الأرض، وهي شديدة الأثر في

مشهد تطمئن له النفس وتستريح وترغب، وتشاق إليه.

ومن الأمور التي رغب فيها المثل القرآني: الإيمان والإسلام.

قال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيَّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فقد جاء هذا التشبيه بديعاً مشوقاً؛ إذ جعل حال المسلم بعد أن صار إلى الإسلام بحال من كان عديم الخير عديم الإفادة، كالميت، فإن الشرك يحول دون التمييز بين الحق والباطل، ويصرف صاحبه عن السعي إلى ما فيه خيره ونجاته، وهو في ظلمة لو أفاق لم يعرف أين ينصرف؟ فإذا هداه الله إلى الإسلام تغير حاله فصار يميز بين الحق والباطل، ويعلم الصالح من الفاسد، فصار كالحي، وصار يسعى إلى ما فيه الصلاح، ويتنكب عن سبيل الفساد فصار في نور يمشي به في الناس^(١).

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨ / ٤٥.

تحقيقها لشأن المشبه، وإظهارها لضياعه، وتشرده وضلاله.

فقد ضرب الله عز وجل هذا المثل لمن لا يعمل بعلمه على سبيل التبكيت والتشنيع والتنفير؛ حتى لا يصير الإنسان مثل الحمار حينما يكون له علم ولا يعمل به.

وكقوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ضرب الله هذا المثل للتنفير من تعاطي الربا، بعد الترغيب في بذل الصدقة لمستحقيها.

والآية الكريمة تصور المرايبي بتلك الصورة المربعة المفزعة التي تحمل كل عاقل على الابتعاد عن كل معاملة يشم منها رائحة الربا، وهنا ينبغي توضيح أمرين:

الأول: أن جمهور المفسرين يرون أن هذا القيام المفزع للمرايبي يكون يوم القيامة، حين يبعثون من قبورهم، فقيام المرايبي يوم القيامة كذلك مما نطق به الآثار، وهو مما لا يحيله العقل ولا يمنعه؛ ولعل الله تعالى جعل ذلك علامة له يعرف بها يوم الجمع الأعظم عقوبة له.

أويكون المراد: تشبيه المرايبي في حرصه وتحركه في اكتسابه في الدنيا بالمتخبط المصروع، كما يقال لمن يسرع بحركات مختلفة: قد جن، ولا يخفى أن هذا تأويل مصادم لما عليه سلف الأمة؛ ولما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير داع، سوى الاستبعاد الذي لا يعتبر في مثل هذه المقامات.

والصواب: أنه لا مانع من أن تكون الآية تصور حال المرايبي في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا في قلق مستمر، وانزعاج دائم، واضطراب ظاهر، بسبب جشعهم وشهرهم في جمع المال، ووساوسهم التي لا تكاد تفارقهم، وهم يفكرون في مصير أموالهم، ومن يتبع أحوال بعض المتعاملين بالربا يراهم أشبه بالمجانين في أقوالهم وحركاتهم، أما في الآخرة فقد توعدهم الله تعالى بالعقاب الشديد، والعذاب الأليم^(١).

وجمهور المفسرين يرون أيضًا أن التشبيه في الآية الكريمة على الحقيقة، بمعنى أن الآية تشبه حاله بحال المجنون الذي مسه الشيطان؛ لأن الشيطان قد يمس الإنسان فيصبيه بالصرع والجنون، ولا عبرة بمن أنكر ذلك، قال القرطبي: «وفي هذه الآية دليل على فساد إنكار من أنكر الصرع من جهة الجن، وزعم أنه من فعل الطبائع، وأن

(١) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٥١٠.

أزهارها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته، وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه؛ إذ أصابه الموت أو التلف لماله، فذهب عنه سروره، وزالت لذته وجوره، واستوحش قلبه من الآلام، وفارق شبابه وقوته وماله، وانفرد بصالح أو سيئ أعماله، هنالك بعض الظالم على يديه، حين يعلم حقيقة ما هو عليه، ويتمنى العود إلى الدنيا لا يستكمل الشهوات بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات، بالتوبة والأعمال الصالحات، فالعاقل الجازم الموفق يعرض على نفسه هذه الحالة، ويقول لنفسه: قدرتي أنك قدمت ولا بد أن تموتي، فأبي: الحاليتين تختارين؟ الاغترار بزخرف هذه الدار، والتمتع بها كتمتع الأنعام السارحة، أم العمل لدار أكلها دائم وظلها، وفيها ما تشتهي النفس وتلذ الأعين!! فبهذا يعرف توفيق العبد من خذلانه، وريحه من خسارته (٢).

الشیطان لا يسلك في الإنسان، ولا يكون منه مس^(١)، فالذي عليه جمهور العلماء من أن التشبيه على الحقيقة هو الحق؛ لأن الشيطان قد يمس الإنسان فيصيبه بالجنون.

وكذلك ضرب الله مثلاً للتفكير من الركون إلى الدنيا فقال تعالى: ﴿وَأَصْرَبْ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَلْخَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أصلاً ولمن قام بوراثته بعده تبعاً: - اضرب للناس مثل الحياة الدنيا؛ ليتصوروها حق التصور، ويعرفوا ظاهرها وباطنها، فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية، ويؤثروا أيهما أولى بالإيثار، وأن مثل هذه الحياة الدنيا كمثل المطر ينزل على الأرض فيختلط نباتها، تنبت من كل زوج بهيج، فيبنا زهرتها وزخرفها تسر الناظرين وتفرح المتفرجين، وتأخذ بعيون الغافلين إذ أصبحت هشيمًا تذروه الرياح، فذهب ذلك النبات الناضر، والزهر الزاهر، والمنظر البهي، فأصبحت الأرض غبراء ترابًا، قد انحرف عنها النظر، وصدف عنها البصر، وأوحشت القلب، كذلك هذه الدنيا، بينما صاحبها قد أعجب بشبابه، وفاق فيها على أقرانه وأترابه، وحصل درهمها ودينارها، واقتطف من لذته

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٧٨.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٣٥٥.

آثار ضرب الأمثال

لضرب الأمثال آثار تربوية، وآثار دعوية، وآثار جمالية وفنية، نبينها فيما يأتي:

أولاً: آثار تربوية:

ضرب الأمثال أسلوب من أساليب التربية يحث النفوس على فعل الخير، ويحضها على البر، ويدفعها إلى الفضيلة، ويمنعها عن المعصية والإثم، وهو في نفس الوقت يربي العقل على التفكير الصحيح، والقياس المنطقي السليم؛ لما فيه من تقريب وتسهيل للمعاني البعيدة، أو الغامضة عن طريق عرض أمثالها، وما يشابهها من المعاني المحسوسة والواضحة.

فالأمثال أوقع في النفس، وأبلغ في الوعظ، وأقوى في الزجر، وأقوى في الإقناع، ولأهمية الأمثال وفعاليتها استخدمها القرآن الكريم في مواضع كثيرة، وقد أخبر سبحانه وتعالى أنه لا يعقلها ولا يعيها إلا العالمون، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَفْقَهُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فالأمثال القرآنية ذات مدلولات تربوية عميقة التأثير، عظيمة الفائدة، تتضافر مع غيرها من وسائل التربية القرآنية، كالقصة، والحوار، وأساليب الإقناع وغيرها في تكوين النظرية التربوية الإسلامية الرائدة،

يقول عبد الرحمن النحلاوي ما ملخصه: «لم تكن الأمثال القرآنية والنبوية مجرد عمل فني يقصد من ورائه الرونق البلاغي فحسب، بل إن لها غايات نفسية تربوية، حققتها نتيجة لنبل المعنى، وسمو الغرض، بالإضافة إلى الإعجاز البلاغي، وتأثير الأداء»^(١).

وهناك آثار تربوية عديدة للأمثال، منها:

١. شحذ الذهن واستثارته للتفكير والقياس والتأمل.

وغير ذلك من العمليات الفكرية والذهنية التي يثيرها المثل، بقصد الإقناع بصحة رسالة الإسلام وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث تنطوي معظم الأمثال على قياس تذكر مقدماته ويطلب من العقل أن يتوصل إلى النتيجة التي لا يصرح القرآن بها في كثير من الأحيان، بل يشير إليها ويترك للعقل معرفتها.

ونذكر منها على سبيل المثال: المعنى الذي ضربه الله مثلاً للحق والباطل، في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَهُمْ بِقُدْرِهِ فَاتَّخِذُوا لَهَا سَبِيلًا رَبِّهَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرَدٍّ لَدُكٍ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

(١) التربية بضرب الأمثال، النحلاوي ص ٢٠.

هذا الغرض التربوي، فينبوا في دراساتهم أن القرآن يستخدم التشبيه والتمثيل كي يقرب المعاني، ويشير إلى أمور حسية لشرح أفكار مجردة، فالقرآن لا يخاطب فئة المثقفين وحدهم وإنما يخاطب مختلف الفئات التي منها أقوام أميون لا تستطيع عقولهم أن تقفز مرة واحدة إلى المعقولات، وإنما لابد لها من المرور بمرحلة الإدراك الحسي، فيكون بذلك أقرب إلى الأفهام وأرسخ.

٣. إثارة الانفعالات المناسبة للمعنى وتربية العواطف.

ف نجد المثل القرآني أحياناً يشير في النفس انفعالاتاً إيجابياً، وأحياناً يشير انفعالاتاً الاشمزاز من الضالين والشعور بتفاهتهم وضياع عقولهم، فانظر إلى معنى قوله تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الجمعة: ٥].

أي: كلّفوا العمل بما فيها ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا

كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَالًا﴾ [الجمعة: ٥].

فتشبيهم بالحمار الذي يحمل أثقاراً يشير في النفس قمة النفور والاشمزاز من حالهم.

٤. حمل الناس على الخير وتنفيرهم من الشر، صيانة لفظهم من الزلل، ووقاية لهم من الوقوع في الخطأ.

٥. توضيح الفضائل والترغيب فيها.

فالأمثال كما أنها وسيلة نافعة في الترغيب فهي كذلك وسيلة نافعة للتنفير من

ففي هذا المثل استشارة العقل على التفكير والتأمل، حيث شبه الباطل بالزبد الذي يذهب جفاء، وشبه الحق بالماء الذي يمكث في الأرض، فالباطل يضمحل وينمحق، كالزبد الذي يحتمله السيل، وإن علا على الحق في بعض الأوقات، كما يعلو الزبد، والحق ثابت باقٍ، يمكن في القلب، فينتفع به المؤمن، فيثمر عملاً صالحاً، كما يمكث الماء وأسباب الإنبات في الأرض، فيثمر عشباً وزرعاً ونخلاً وأعشاباً.

٢. تقريب ما غاب عن الذهن من المعاني بصورة بلاغية موجزة.

تفند إلى أعماق النفس، مثيرة للعواطف والوجدان، اعتماداً على التصوير والتشبيه، كطريقة تربوية وتعليمية، تساعد على توضيح المقاصد، وشرح الأفكار، وتقريب المعاني للأذهان.

فضرب الأمثال من الأساليب التربوية الإسلامية التي تقرب المعاني المجردة إلى الأذهان، وتقرب المعقول إلى المحسوس فيتقبله العقل، ويدركه ويفهمه؛ وتؤثر في سلوك الأفراد، فتذكر الغافل، وتنبيه المعاند، وتبرز المعقول في صورة المحسوس، كما تكشف الأمثال عن الحقائق، وتعرض الماضي في معرض الحاضر، وتضرب الأمثال للترغيب والترهيب.

وقد تنبه علماء التربية المسلمون إلى

الأشياء التي لا يرغب فيها.

٦. القدرة على التوضيح والتأثير والإقناع وعرض الحقائق والاحتجاج لها. وذلك مع ما فيها من الإيجاز الذي يفعل فعل الإطناب، فإن ما يحمله المثل من المعاني يفوق بكثير قدرة ما يعادله في الحجم من الكلام المجرد؛ ولهذا يوصى بالتعمق في دراسة أمثال القرآن والسنة وأسلوبهما من أجل الوصول إلى ما فيهما من مناجم السبل النافعة في التعليم والتربية، وبلورتها في منهج واضح يساعد على الانتفاع بها.

كما ضرب الله مثلاً للدلالة على أنه الإله الحق، وأن الأوثان لا تستحق أن تعبد بقوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

إذ دل بالمثل على عجز الأصنام عن أن تنفع عابدها بشيء؛ إذ مثل حالها بحال العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، ودل على كمال قدرته؛ إذ جعل في مقابلة العبد المملوك الممثل للأصنام من اتسع رزقه، وكان ينفق منه كيف يشاء، ومن له مسكة من العقل لا يتولى العاجز بالعبادة ويدع عبادة القادر على كل شيء.

٧. تختصر القول وتدرّب الإنسان على

جودة التفكير وسلامة القياس.

ولأهمية الأمثال في التربية جاء في كتاب: (التربية الإسلامية وتحديات العصر): «أن الأمثال أوقع في النفس، وأبلغ في الوعظ وأقوى في الزجر، وأقوم في الإقناع، والباحث في التراث التربوي الإسلامي يجد إلى جانب استخدام القرآن الكريم والحديث الشريف للأمثال والأشياء طريقة للتربية والتعليم اهتمام المربين المسلمين بذلك»^(١).

٨. إشراك أكثر من حاسة من الحواس الإنسانية في تلقي المعنى.

وتوظيف قدرة العقل الإنساني على التخيل والتصوير في تجلية الحقائق وتقريبها وفهمها، كما أنه يجعل الحقائق أعلق في النفوس، وأثبت في العقول، ويسهل استدامتها وبقائها في الذاكرة فترة أطول، هذا بالإضافة إلى أنها تساعد في جعل المعنى واضحاً ومشوقاً وممتعاً، وتسهم في دفع الملل عن نفس المتلقي.

٩. مخاطبة النفس الإنسانية بكل أبعادها وجوانبها.

وتركيزها على العبرة والفائدة المتوخاة دون الاعتداد بالمظهر أو الشكل أو الحجم، ما لم تكن العبرة من المثل متعلقة بشيء

(١) التربية الإسلامية وتحديات العصر، عبود، عبد الغني العال، حسن إبراهيم ص ٤٩٥.

١٩. تفاهة مواقف الكافرين من الحقائق الكبرى^(١).

ثانيًا: آثار دعوية:

للأمثال القرآنية أثر بليغ في تلقي الدعوة بالقبول لما لها من تأثير على النفس والعقل والوجدان؛ ولما تحتويه من بلاغة وإعجاز؛ ولما فيها من تقريب وتسهيل للمعاني البعيدة أو الغامضة، عن طريق عرض أمثالها، وما يشابهها من المعاني المحسوسة والواضحة. يقول الزركشي: «وفي ضرب الأمثال من تقرير المقصود ما لا يخفى؛ إذ الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي والشاهد بالغائب، فالمرغب في الإيمان -مثلًا- إذا مثل له ب تأكيد في قلبه المقصود، والمزهد في الكفر إذا مثل له بالظلمة تأكيد قبحه في نفسه، وفيه أيضًا تبكيك الخصم، وقد أكثر الله تعالى في القرآن، وفي سائر كتبه من الأمثال»^(٢).

ويقول العز بن عبد السلام: «إنما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيرًا ووعظًا، فما اشتمل منها على تفاوت في ثواب، أو على إحباط عمل، أو على مدح أو ذم أو نحوه، فإنه يدل على الإحكام»^(٣).

(١) ضرب الأمثال في القرآن، عبد المجيد البيانوني ص ٥٩.

(٢) البرهان في علوم القرآن ١/ ٤٨٨.

(٣) الإتيان في علوم القرآن، السيوطي ١٠٤١/ ٢.

منها، وهي تتميز بالدقة في اختيار اللقطة المتقاة التي تبرز أشد جوانب المثل إثارة، وكذلك استخدامها وشمولها لمختلف مظاهر الطبيعة مما هو من أسرار خلودها، إضافةً إلى السهولة والقرب والبعد عن التعقيد والصعوبة، مما أضفى عليها الصلاحية لمخاطبة مختلف المستويات العلمية والاجتماعية.

ومن الآثار التربوية التي تثيرها الأمثال القرآنية أيضًا:

١٠. تعرية الباطل وتزييفه، وفضح مواقفه.
١١. كشف الحقائق وإيضاح المعنى في عبارة موجزة بليغة.
١٢. توضيح الحق وتثبيته وإقامة حججه وبراهينه.
١٣. التحذير من عاقبة كفر النعمة وبطر المعيشة.
١٤. استخلاص سنن الله تعالى في الكون والحياة والإنسان.
١٥. تقريب الحقائق الغيبية للأذهان.
١٦. تصوير الحقائق الإيمانية المجردة بصورة محسوسة.
١٧. ربط عالم الشهادة بعالم الغيب.
١٨. فضح تناقض المشركين والمنافقين في مواقفهم.
١٩. تقرير حقائق للترغيب بها أو التنفير منها.

وطعنوا فيه، وأنكروا أنه من عند الله، والتعريف في (الناس) للاستغراق، أي: لجميع الناس، فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم للناس كافة، و(ضرب المثل): ذكره ووصفه، وتنوين (مثل)؛ للتعظيم والشرف، أي: من كل أشرف الأمثال، فالمعنى: ذكرنا للناس في القرآن أمثالا هي بعض من كل أنفع الأمثال وأشرفها، والمراد: شرف نفعها.

وخصت أمثال القرآن بالذكر من بين مزايا القرآن؛ لأجل لفت بصائرهم للتدبر في ناحية عظيمة من نواحي إعجازه، وهي بلاغة أمثاله، فإن بلغاهم كانوا يتنافسون في جودة الأمثال وإصابتها المحز من تشبيه الحالة بالحالة.

ومعنى الرجاء في ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: منصرف إلى أن حالهم عند ضرب الأمثال القرآنية كحال من يرجو الناس منه أن يتذكر، وهذا مثل نظائر هذا الترجي الواقع في القرآن.

ومعنى التذكر: التأمل والتدبر؛ لينكشف لهم ما هم غافلون عنه، سواء ما سبق لهم به علم فنسوه، وشغلوا عنه بسفساف الأمور، وما لم يسبق لهم علم به، مما شأنه أن يستبصره الرأي الأصيل، حتى إذا انكشف له كان كالشيء الذي سبق له علمه، وذهل عنه، فمعنى التذكر معنى بديع شامل لهذه

ولقد جاء القرآن الكريم داعياً إلى الهداية والرشاد بأساليب شتى؛ فتارة بالوعد والوعيد، وتارة بالإقناع العقلي، وتارة ثالثة بوخز الضمير والوجدان، ورابعة بتوجيه الفطرة إلى حقيقتها، وخامسة بالإعجاز بشتى ألوانه، وأحياناً بأسلوب ضرب المثل الذي هو أقرب الوسائل الدعوية إلى فطرة الإنسان، وأكثر العوامل النفسية تأثيراً، لماله من الواقعية والصدق، ودقة التصوير، وله من السمات ما ليس لغيره! فيمكن أن يستخدم هذا الأسلوب كوسيلة للتهذيب الخلقي من حثه على الخير أو دفع الشر، فالأمثال بما فيها من تجسيد للمعاني المجردة أقرب إلى النفوس في إحداث الترغيب والترهيب من الوعظ المباشر.

وهناك آثار دعوية عديدة للأمثال، منها:
١. ما تورثه في النفس من العظة والعبرة والتذكر.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

وهو نظير قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١].
وتأكيد الخبر في قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ [الزمر: ٢٧].

بلام القسم وحرف التحقيق منظور فيه إلى حال الفريق الذين لم يتدبروا القرآن،

الخصائص^(١).

أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿[ص: ٢٩].

فجعل غاية الإنزال للقرآن التدبر والتذكر؛ ولولا التدبر لما حصل التذكر الذي هو يقظة القلب، وعمران الوجدان بالإيمان.

٢. ما تورثه من الفهم الصحيح لمراد الله و مراد رسوله.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّائِسِ وَمَا يَقُولُهَا إِلَّا الْمَكِلُونُ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فقوله: ﴿وَمَا يَقُولُهَا إِلَّا الْمَكِلُونُ﴾ أي: بالله وصفاته وأسمائه، وبمواقع كلامه وحكمه، أي: لا يعقل صحتها وحسنها، ولا يفهم حكماتها إلا هم؛ لأن الأمثال والتشبيهات إنما هي طرق إلى المعاني المستورة حتى يبرزها ويصورها للأفهام، كما صور هذا التشبيه الذي بين فيه حال المشرك وحال المؤمن^(٢).

والعقل هنا بمعنى الفهم، أي: لا يفهم مغزاها إلا الذين كملت عقولهم، فكانوا علماء غير سفهاء الأحلام، وفي هذا تعريض بأن الذين لم يتفهموا بها جهلاء العقول، فما بالك بالذين اعتاضوا عن التدبر في دلالتها باتخاذها هزءًا وسخرية... وهذا من بهتانهم، وإلا فقد علم البلغاء أن لكل مقام

ومما ضربه الله لنا من الأمثال للعظة والعبرة قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

حيث أخبر الله تعالى هنا أن هناك قرية كان أهلها في أمن واستقرار وسعادة ونعيم، تأتيها الخيرات من كل جهة، فلم يشكر أهلها ربهم على ما آتاهم من خير ورزق، فسلبهم الله نعمة الأمان والاطمئنان، وأذاقهم آلام الخوف والجوع والحرمان بسبب كفرهم ومعاصيهم.

وهذا مثل أهل مكة الذين أمنهم الله بالبيت العتيق، يقصده الناس جميعًا، ولهم تجارتان، في الصيف للشام، وفي الشتاء لليمن، فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى الإيمان بالله كفروا به وعصوه، فإن لم يتوبوا إلى الله فجزاؤهم سيكون كجزاء أهل القرية المضروب بها المثل، حيث نزلت بها عقوبة الله، وحلت بساحتها نقمته. والمقصود أن من آثار ضرب الأمثال في القرآن حصول التذكر والاتعاظ بما فيها، والتدبر هو غاية كل ذلك ونتيجته؛ ولذلك قال الله عز وجل: ﴿كِتَبُ

(٢) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٤٧٧.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٣٩٧.

أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ قَطَلٌ
وَاللَّهُ يَمَّا تَقَمَّلُونَ بَصِيرٌ [البقرة: ٢٦٥].

فهذا المثل يبين لنا مدى الخير الذي يحمله لنا الإنفاق في سبيل الله، ومدى ارتباطه الوثيق بحياتنا، فهو يجعل البركة في الرزق أضعافاً، وهذا في الدنيا، ويجعل الثواب مضاعفًا في الآخرة لمن أراد له الله في الدنيا والآخرة، كما أن هذا المثل أيضًا يعلمنا خلقًا جميلًا من مكارم الأخلاق، وهو ألا يمتن الغني صاحب المال على الفقير ذي الحاجة وألا يؤذيه بالقول أو الفعل.

٤. أنها ذات أثر عميق في تنمية القيم الأخلاقية والاجتماعية لدى المسلم.

لما لها من تأثير إيجابي في العواطف والمشاعر، وفي تحريك نوازع الخير في النفس البشرية.

يقول الماوردي: «للأمثال من الكلام موقع في الأسماع، وتأثير في القلوب لا يكاد الكلام المرسل يبلغ مبلغها، ولا يؤثر تأثيرها؛ لأن المعاني بها لائحة، والشواهد بها واضحة، والنفوس بها وامقة، والقلوب بها واثقة، والعقول لها موافقة؛ فلذلك ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز وجعلها من دلائل رسله، وأوضح به الحجة على خلقه؛ لأنها في القلوب مقبولة، وفي العقول مقبولة»^(٣).

مقالاً، ولكل كلمة مع صاحبها مقاماً^(١).

وفي هذا مدح للأمثال التي يضربها، وحث على تدبرها وتعقلها، ومدح لمن يعقلها، وأنه عنوان على أنه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالمين، والسبب في ذلك أن الأمثال التي يضربها الله في القرآن إنما هي للأمور الكبار، والمطالب العالية، والمسائل الجليلة، فأهل العلم يعرفون أنها أهم من غيرها؛ لاعتناء الله بها، وحثه عباده على تعقلها وتدبرها، فيبدلون جهدهم في معرفتها، وأما من لم يعقلها مع أهميتها فإن ذلك دليل على أنه ليس من أهل العلم؛ لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة فعدم معرفته غيرها من باب أولى وأحرى؛ ولهذا أكثر ما يضرب الله الأمثال في أصول الدين ونحوها^(٢).

٣. ما تورثه من التدبر والتفكير السليم في كلام الله وكلام رسوله.

قال تعالى: ﴿وَلَيْكَ الْأَمْثَلُ نَصْرُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

فالله جل وعلا ذكر تلك الأمثال للناس؛ ليتفكروا ويتدبروا فيها، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَتَّبِعَتْنَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَكَانَتْ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/٢٥٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٣١.

(٣) أدب الدنيا والدين، ص ٢٧٥.

ومن الآثار الدعوية للأمثال القرآنية أيضًا:

١. تنبيه المخطئ إلى خطئه، والمحسن إلى إحسانه.

٢. الإعانة على فهم المعاني الرائعة بألفاظ موجزة، وتقديم أفكار غزيرة ودقيقة؛ لتدل على المراد بعبارة مختصرة.

٣. تقرير المقصود، ففيها كشف للمعاني، وتشبيه الخفي منها بالجلي، والغائب بالشاهد.

٤. الترغيب والترهيب، وذلك إما بالمدح أو التعظيم، أو بالذم أو التحقير، مما ينعكس على السلوك إقبالاً أو نفوراً.

٥. قوة وقعها على الأسماع، وتأثيرها في القلوب، فهي بالغة في الوعظ، قوية في الزجر، وإقامة الحجة والقياس والاستنباط، وأقوم على الإقناع بذكرها محاسن الحق والترغيب فيه، وذكرها قبائح الباطل والتنفير منه.

٦. إثارة المشاعر بتركيزها على محور الطمع أو الرغبة أو الخوف أو الحذر لدى الشخص المخاطب.

٧. تحريك الطاقات الفكرية، وشحذ الذهن؛ لتوجيهه للفكر والتأمل من أجل إدراك المراد.

٨. الدلالة على الحكم والفوائد العلمية والأحكام الشرعية في جوانب

العقيدة.

٩. تربية النفوس بإظهار نموذج القدوة الحسنة؛ للاقتداء بها، وإظهار نموذج القدوة السيئة؛ للنفور منها، والاعتبار بها.

١٠. ترسيخ مفاهيم التوحيد والإيمان، والإبلاغ عن المغيبات، كما توجه المخاطب إلى أداء العبادات، والالتزام بالأخلاق الحسنة، وتجنب الأخلاق السيئة.

١١. تبكيت الخصم، وإقناعه، وإقامة الحجة عليه.

ثالثاً: آثار جمالية وفنية:

ضرب الأمثال في القرآن الكريم من أساليب الصياغة الفنية الرائعة الدالة على إعجاز القرآن في إبراز المعاني في قالب حسن يقربها إلى الأفهام، وفي صور حية تستقر في الأذهان؛ لما فيها من تشبيه الغائب بالحاضر، والمعقول بالمحسوس، وقياس النظر على النظر. وقد سميت الحكم القائم صدقها في العقول أمثالاً؛ لانتصاب صورها في العقول مشتقة من المثل الذي هو الانتصاب^(١).

وترجع جمالية الأمثال القرآنية إلى جمالية كلام الله تعالى فهو كلام معجز،

(١) مجمع الأمثال، أبو الفضل الميداني ٦/١.

هذه الأمثال إلا لها ومن أجلها؛ بغية خيرها وصلاحتها في حالها ومآلها.

ولكي نقف على بعض الآثار الجمالية والفنية للأمثال لابد من استعراض بعض الأمثال القرآنية:

ضرب الله مثلاً للمشرك كمثّل العطشان الذي يمد يديه إلى الماء من بعيد يريد أن يتناوله ولا يقدر عليه: فقال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةٌ لِّخَلْقٍ وَلَئِنَّ دَعْوَتَهُ لَذَاتُ أَلَمٍ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسٌ سَطِ كَتْ يَهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دَعَا الْكَاذِبِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤].

فلو نظرت إلى مثل هذا الشخص على هذه الحالة، وفي تلك الصورة بكل أجزائها، وهو باسط يده، مفرجة الأصابع إلى ماء بعيد عنه، وهو فاغر فاه ليشرب، لقلت: وأي جدوى تعود عليه؟! ومتى يذوق الماء وهو على تلك الحالة؟! إنه يموت عطشاً ولا يذوق منه قطرة.

والمقصود من التشبيه في هذه الآية الكريمة نفي استجابة الأصنام لما يطلبه المشركون منها نفياً قاطعاً، حيث شبه سبحانه حال هذه الآلهة الباطلة عندما يطلب المشركون منها ما هم في حاجة إليه بحال إنسان عطشان، ولكنه غبي أحمق؛ لأنه يمد يده إلى الماء طالباً منه أن يصل إلى فمه دون أن يتحرك هو إليه؛ فلا يصل إليه شيء من الماء؛ لأن الماء لا يسمع نداء من يناديه،

له رونق وجمال وحلاوة وطلاوة، يقف البليغ أمامها عاجزاً، ويصمت الناقد أمامها مندهشاً حائراً، ومنذ قرون عدة والكتب في إعجازه وبلاغته وفصاحته تؤلف وتدرس، ولم يحط ببلاغته الأدباء والبلغاء.

وترجع جمالية المثل القرآني إلى أنه يجتمع فيه أربعة أمور لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة^(١).

يقول الزركشي رحمه الله مبيّناً أهمية المثل: «ومن حكمته: تعليم البيان، وهو من خصائص هذه الشريعة، والمثل أعون شيء على البيان...، وفي ضرب الأمثال من تقرير المقصود ما لا يخفى؛ إذ الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والشاهد بالغائب...، وقد أكثر تعالى في القرآن وفي سائر كتبه من الأمثال». ثم قال: «فالأمثال مقادير الأفعال، والمتمثل كالصانع الذي يقدر صناعة، وكل شيء له قالب ومقدار، وقالب الكلام ومقداره الأمثال»^(٢).

والمقصود أن للأمثال القرآنية القدرة في تحقيق أغراضها وغاياتها عبر صور بيانية ومشاهد فنية، تلقي بظلالها وآثارها الفاعلة في النفس البشرية، والتي ما سيقّت

(١) المصدر السابق.

(٢) البرهان في علوم القرآن ١/ ٤٨٨

سورة البقرة، ففي ختام الربع الأول، قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧].

فهذا المثل الناري، والمثل المائي في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَنُقُرٌ يُجْعَلُونَ أَصْنَعُهُمْ فِي مَا ذُنِبُوا﴾ [البقرة: ١٧] **أَصْنَعُهُمْ** كَمَا أَضَاءَ اللَّهُ لَهُمْ مَشْوًا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [البقرة: ١٩ - ٢٠].

شبه سبحانه أعداءه المنافقين بقوم أوقدوا نارا؛ لتضيء لهم ويتفتعوا بها، فلما أضاءت لهم النار فأبصروا في ضوئها ما ينفعهم ويضرهم، وأبصروا الطريق بعد أن كانوا حيارى تائهين تركوه، فهم كقوم سفر ضلوا عن الطريق، فأوقدوا النار تضيء لهم الطريق، فلما أضاءت لهم فأبصروا وعرفوا طفئت تلك الأنوار، وبقوا في الظلمات لا يبصرون، قد سدت عليهم أبواب الهدى الثلاث، فإن الهدى يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب؛ مما يسمعه بأذنه، ويراه بعينه، ويعقله بقلبه، وهؤلاء قد سدت عليهم أبواب الهدى، فلا تسمع قلوبهم منه شيئاً، ولا تبصره، ولا تعقل ما ينفعها، وقيل: لما لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم نزلوا بمنزلة من لا سمع له ولا بصر ولا

ففي هذه الجملة الكريمة تصوير بليغ لخبية وجهالة من يتوجه بالعبادة والدعاء لغير الله تعالى.

وأجرى سبحانه على الأصنام ضمير العقلاء في قوله: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ [الرعد: ١٤]؛ مجازة للاستعمال الشائع عند المشركين؛ لأنهم يعاملون الأصنام معاملة العقلاء، ونكر (شيئاً) في قوله: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٤]؛ للتحقير، والمراد: أنهم لا يستجيبون لهم أية استجابة، حتى ولو كانت شيئاً تافهاً، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا كَبَسِطَ كَيْدَهُ إِلَى الْمَاءِ﴾ [الرعد: ١٤]، من أعم الأحوال، أي: لا يستجيب الأصنام لمن طلب منها شيئاً إلا استجابة كاستجابة الماء لملهوف بسط كفيه إليه، يطلب منه أن يدخل فمه، والماء لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه، ولا يقدر أن يجيب طلبه، ولو مكث على ذلك طوال حياته، والضمير (هو) في قوله: ﴿وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ [الرعد: ١٤].

للماء، والهاء في ﴿بَالِغِهِ﴾ للقم: أي: وما الماء ببالغ فم هذا الباسط كفيه، وقيل: الضمير (هو): للباسط، والهاء: للماء، أي: وما الباسط لكفيه ببالغ الماء فمه^(١).

وضرب الله في سورة البقرة للمنافقين مثلين، مثلاً مائياً، ومثلاً نارياً، وكذلك ضرب لهم المثلين في سورة الرعد، أما في

(١) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ٥/ ٢٣٧١.

عقل، والقولان متلازمان.

وقال في صفتهم: ﴿نَهْمٌ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]؛ لأنهم قد رأوا في ضوء النهار، وأبصروا الهدى، فلما طفئت عنهم لم يرجعوا إلى ما رأوا وأبصروا، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧].

ولم يقل: ذهب نورهم، وفيه سر بديع؛ وهو انقطاع سر تلك المعية الخاصة التي هي للمؤمنين من الله تعالى، فإن الله تعالى مع المؤمنين، وإن الله مع الصابرين، وإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، فذهب الله بذلك انقطاع لمعيته التي خص بها أوليائه، فقطعها فيما بينه وبين المنافقين، فلم يبق عندهم بعد ذهاب نورهم ولا معهم. وتأمل قوله تعالى: ﴿أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ [البقرة: ١٧].

كيف جعل ضوءها خارجاً عنه منفصلاً، ولو اتصل ضوءها به ولا به لم يذهب، ولكنه كان ضوءه مجاورة لا ملازمة ومخالطة، وكان الضوء عارضاً، والظلمة أصلية، فرجع الضوء إلى معدنه، وبقيت الظلمة في معدنها، فرجع كل منهما إلى أصله اللائق به، حجة من الله قائمة، وحكمة بالغة، تعرف بها إلى أولي الألباب من عباده. وتأمل قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧].

ولم يقل: بنارهم؛ ليطابق أول الآية، فإن

النار فيها إشراق وإحراق، فذهب بما فيها من الإشراق وهو، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق وهو النارية.

وتأمل كيف قال: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧] ولم يقل: (بضوئهم) مع قوله: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ [البقرة: ١٧].

لأن الضوء هو زيادة في، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل، فلما كان أصل الضوء كان الذهاب به ذهاباً بالشيء وزيادته، وأيضاً فإنه أبلغ في النفي عنهم، وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم، وأيضاً فإن الله تعالى سمي كتابه نوراً، ورسوله نوراً، ودينه نوراً، وهداه نوراً، ومن أسمائه، والصلاة نور، فذهابه سبحانه بنورهم ذهاب بهذا كله. وتأمل مطابقة هذا المثل لما تقدمه من قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَحَت بِتِجَارَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُنْهَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

كيف طابق هذه التجارة الخاسرة التي تضمنت حصول الضلالة والرضا بها، وبدل الهدى في مقابلتها، وحصول الظلمات التي هي الضلالة والرضا بها بدلاً عن الذي هو الهدى، وبدلوا الهدى، وتعوضوا عنه بالظلمة والضلالة، فإيا لها من تجارة، ما أخسرها! وصفقة ما أشد غبنها!

وتأمل كيف قال الله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ

أهل الإسلام، ويكون بمنزلة قول الله تعالى:
﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤].

ويكون قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ يَبُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧].

مطابقاً لقوله تعالى: ﴿أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤].

ويكون تخييرهم، وإبطال ما راموه هو تركهم في ظلمات الحيرة لا يهتدون إلى التخلص مما وقعوا فيه، ولا يبصرون سبيلاً، بل هم صم بكُم عمي، وهذا التقدير وإن كان حقاً ففي كونه مراداً بالآية نظر، فإن السياق إنما قصد غيره، ويأباه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ [البقرة: ١٧].

وموقد نار الحرب لا يضيء ما حوله أبداً، ويأباه قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ يَبُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧].

وموقد نار الحرب لا نور له، ويأباه قوله تعالى: ﴿وَزَكَرَكُم فِي ظُلْمَةٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

وهذا يقتضي أنهم انتقلوا من نور المعرفة والبصيرة إلى ظلمة الشك والكفر، قال الحسن رحمه الله: هو المنافق أبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر؛ ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨].

أي: لا يرجعون إلى الذي فارقوه، وقال تعالى -في حق الكفار-: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُتَى

يَبُورِهِمْ﴾ فوحد، ثم قال: ﴿وَزَكَرَكُم فِي ظُلْمَةٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ فجمع الظلمة، فإن الحق واحد، وهو صراط الله المستقيم الذي لا صراط يوصل إليه سواه، وهو عبادته وحده لا شريك له، بما شرعه على لسان رسوله، لا بالأهواء والبدع وطرق الخارجين عما بعث الله به رسوله من الهدى ودين الحق، بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة متشعبة.

ولهذا يفرد سبحانه الحق، ويجمع الباطل، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فجمع سبل الباطل، ووحد سبيل الحق، ولا يناقض هذا قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكَ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦].

فإن تلك هي طرق مرضاته التي يجمعها سبيله الواحد، وصراطه المستقيم، فإن طرق مرضاته كلها ترجع إلى صراط واحد، وسبيل واحد، وهو سبيله التي لا سبيل إليه إلا منها.... وقد قيل: إن هذا مثل للمنافقين وما يوقدونه من نار الفتنة التي يوقعونها بين

فَهُمْ لَا يَمَيَّلُونَ ﴿البقرة: ١٧١﴾.

فسلب العقل عن الكفار؛ إذ لم يكونوا من أهل البصيرة والإيمان، وسلب الرجوع عن المنافقين؛ لأنهم آمنوا ثم كفروا فلم يرجعوا إلى الإيمان^(١).

وأيضًا في إسناد ذهب في قوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ يَبُورُهُمْ﴾ [البقرة: ١٧٧].

إشعار بأن الذي سلب عنهم لن يستطيع أحد أن يرده عليهم؛ لأن الذي سلبه عنهم إنما هو الله الغالب على أمره. أو لأنه حصل بلا سبب من ريح أو مطر أو إطفاء مطفئ، والعرب يستندون الأمر الذي لم يتضح سببه لاسم الله تعالى.
المثل المائي:

قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَرَقٌّ﴾ [البقرة: ١٩].

وقال تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٠].

هذا مثل آخر مائي ضربه الله سبحانه للمنافقين، فقال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩].

فشبه نصيبهم مما بعث الله تعالى به رسوله من والحياة بنصيب المستوقد النار التي طفت عنه أحوج ما كان إليها، وذهب نوره، وبقي في الظلمات حائرًا تائهاً، لا يهتدي سبيلًا، ولا يعرف طريقًا، وبنصيب أصحاب

(١) التفسير القيم، ابن القيم ص ١٨٠.

الصيب وهو المطر الذي يصب، أي: ينزل من علو إلى أسفل، فشبه الهدى الذي هدى به عباده بالصيب؛ لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، ونصيب المنافقين من هذا الهدى بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيب إلا ظلمات ورعد وبرق، ولا نصيب له فيما وراء ذلك، مما هو المقصود بالصيب من حياة البلاد والعباد والشجر والدواب، وإن تلك الظلمات التي فيه، وذلك الرعد والبرق مقصود لغيره، وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيب، فالجاهل لفرط جهله يقتصر على الإحساس بما في الصيب من ظلمة ورعد وبرق ولوازم ذلك من برد شديد، وتعطيل مسافر عن سفره، وصانع عن صنعه، ولا بصيرة له تنفذ إلى ما يؤول إليه أمر ذلك الصيب من الحياة والنفع العام. وهكذا شأن كل قاصر النظر ضعيف العقل لا يجاوز نظره الأمر المكروه الظاهر إلى ما وراءه من كل محبوب، وهذه حال أكثر الخلق إلا من صحت بصيرته، فإذا رأى ضعيف البصيرة ما في الجهاد من التعب والمشاق والتعرض لإتلاف المهجة والجراحات الشديدة، وملامة اللوام، ومعاداة من يخاف معاداته لم يقدم عليه؛ لأنه لم يشهد ما يؤول إليه من العواقب الحميدة، والغايات التي إليها تسابق المتسابقون، وفيها تنافس المتنافسون،

فإن قلت: أي المثلين أبلغ؟ قلت: الثاني؛ لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفضاعته؛ ولذلك آخر، وهم يتدرجون في مثل هذا من الأهون إلى الأغلظ^(٢).
بيت العنكبوت:

ومما يبين جمال الأمثال القرآنية وبلاغتها قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

يقول الحق جل جلاله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أصناماً يعبدونها، أي: مثل من أشرك بالله الأوثان في الضعف وسوء الاختيار ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ أي: كمثل العنكبوت فيما تتخذة لنفسها من بيت، فإنه لا يدفع الحر والبرد، ولا يقي ما تقي البيوت، فكَذَلِكَ الأوثان لا تنفعهم في الدنيا والآخرة، بل هي أوهى وأضعف، فإن لبست العنكبوت حقيقةً وانتفاعاً عامّاً، وأما الأوثان فتضر ولا تنفع ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ لا بيت أوهن من بيته؛ إذ أضعف شيء يسقطها^(٣).

وهذه الهيئة المشبه بها مع الهيئة المشبهة قابلة لتفريق التشبيه على أجزائها،

وكذلك من عزم على سفر الحج إلى البيت الحرام فلم يعلم من سفره ذلك إلا مشقة السفر، ومفارقة الأهل والوطن، ومقاساة الشدائد، وفراق المألوفات، ولا يجاوز نظره وبصيرته آخر ذلك السفر ومآله وعاقبته، فإنه لا يخرج إليه، ولا يعزم عليه، وحال هؤلاء حال ضعيف البصيرة والإيمان الذي يرى ما في القرآن من الوعد والوعيد، والزواج والنواهي، والأوامر الشاقة على النفوس، التي تفتطمعها عن رضاها من ثدي المألوفات والشهوات، والقطام على الصبي أصعب شيء وأشقه، والناس كلهم صبيان العقول إلا من بلغ مبالغ الرجال العقلاء الألباء، وأدرك الحق علماً وعملاً ومعرفة، فهو الذي ينظر إلى ما وراء الصيب، وما فيه من الرعد والبرق والصواعق، ويعلم أنه حياة الوجود^(١).

قال الزمخشري: «لقائل أن يقول: شبه دين الإسلام بالصيب؛ لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، وما يتعلق به من تشبه الكفار بالظلمات، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق، وما يصيب الكفرة من الأفرع من البلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق، والمعنى: أو كمثل ذوي صيب، والمراد: كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة، فلقوا منها ما لقوا...، قال:

(٢) الكشف ٤٧/١.

(٣) البحر المديد، ابن عجيبة ٢٠/٢٥٣.

(١) المصدر السابق ص ١٨٣.

[العنكبوت: ٤١] (٢).

موضوعات ذات صلة:

التدبر، التفكير، العقل

فالمشركون أشبهوا العنكبوت في الغرور بما أعدوه، وأولياؤهم أشبهوا بيت العنكبوت في عدم الغناء عمن اتخذوها وقت الحاجة إليها، وتزول بأقل تحريك وأقصى ما ينتفعون به منها نفع ضعيف، وهو السكنى فيها، وتوهم أن تدفع عنهم كما ينتفع المشركون بأوهامهم في أصنامهم، وهو تمثيل بديع من مبتكرات القرآن.

وجملة: ﴿وَلِئِنْ أَوْهَنْتِ الْبُيُوتَ لَبِيتُ

الْعَنَكَبُوتُ﴾ [العنكبوت: ٤١].

معرضة مبينة وجه الشبه، وهذه الجملة تجري مجرى المثل، فيضرب لقلّة جدوى شيء، فاقترضى ذلك أن الأديان التي يعبد أهلها غير الله هي أحقر الديانات وأبعدها عن الخير والرشد، وإن كانت متفاوتة فيما يعرض لتلك العبادات من الضلالات، كما تتفاوت بيوت العنكبوت في غلظها بحسب تفاوت الدويبات التي تنسجها في القوة والضعف (١).

ولماذا لم يقل: أوهن الخيوط خيط العنكبوت؟ فلو كان القرآن من عند محمد صلى الله عليه وسلم لقال ذلك؛ ولكن هذا يخالف الحقيقة العلمية الثابتة بأن خيط العنكبوت أقوى من مثيله من الفولاذ، فكان التعبير الدقيق ﴿وَلِئِنْ أَوْهَنْتِ الْبُيُوتَ﴾

(٢) انظر: المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام، علي الشحود ٢٠١٦/٦.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠٠٣/٢٠.